الفصل الثاني والعشرون

فولتير والمسيحية

١٧٣٤ — ١٧٧٨

١ — فولتير والله

قد ندرس فيما بعد الأنشطة والآراء والاهتمامات غير الدينية فى تلك النار المدمرة التى يقال لها فولتير ، والتى تتأجج بين الحين والحين فى فرنى Ferne ونكتفى هنا بتلخيص آرائه فى الدين وحربه ضد المسيحية . ولن نذكر هنا شيئا لم يذكر مائة مرة من قبل . كما أنه لم يقل عن المسيحية شيئاً لم يسبق قوله . وكل ما فى الأمر أنه حين تكلم انطلقت كلماته مثل اللهب سرى فى أوربا ، وأصبحت قوة شكلت عصره وعصرنا .

وكان طبيعيا أن يرتاب فى العقيدة المسيحية ، لأن الدين قصد به تهدئة الفكر لا إثارته . وكان فولتير هو الفكر مجسدا فهو قلق مضطرب لا يهدأ ولا يسكن . ورأيناه فى سيرة حياته ينضم إلى ذوى العقول المتشككة فى The Tempole يغذى شكوكه بين الربوبيين فى انجلترا ساعيا وراء العلم فى سيرى، متبادلا رسائل الالحاد مع فردريك فى ألمانيا . ومع ذلك فإنه حتى بلغ السادسة بعد الخمسين احتفظ بالحاده أو كفره مظهرا عارضا أو لعبة أو تسلية خاصة . ولم يشن على الكنيسة الحرب علانية . بل على النقيض من ذلك دافع علنا وتكراراً عن أساسيات العقيدة المسيحية : إله عادل وإرادة حرة والخلود . وإذا لم نعده كذوبا (وغالباً ما كان كذلك) فانه احتفظ حتى وفاته بإيمانه بالله وبقيمة الدين . ويمكن أن نقتبس عنه لأى غرض تقريبا ، لأنه مثل أى شىء حى ، نما وتغير واضمحل . ومن منا

احتفظ فى سن الخمسين بما اعتنق من آراء فى سن العشرين ، أو فى سن السبعين ، بآرائه حين كان فى الخمسين ؟ إن فولتير ناقض نفسه إلى أبعد الحدود ، لأنه عمر طويلا وكتب كثيراً ، فكانت آراؤه من فيض رؤيته كلما تقدمت به السنون (١)

وفى سيرى حوالى ١٧٣٤ حاول أن يصوغ أفـكاره حول الأشياء الأولى والأخيرة فى « رسالة فى الميتافزيقا » وقبل أن يجعل بالى المقارنة مألوفة لدى الإنجليز بعدة سنين ذكر فولتير أنه من المنطق التسليم بذهن ذكى عاقل فى الكون مثلما هو منطقى افتراض أن الساعاتى قد صنع ساعة . ففى كلتا الحالتين رأى دليلا على التصميم والتخطيط فى تهيئة وسائل معينة لغايات بعينها . ولكن كما أن الساعة ولو أنها من تصميم العقل تعمل وفق قوانين ثابتة ، فكذلك الكون . وليس ثمة معجزات . ولكنه إلى حد ما لم يستطع أن يطرح جانبا الشعور بأن الإرادة الإنسانية ، بطريقة خفية ولدرجة بسيطة حرة . على الرغم من أنه عرف تمام المعرفة أن الاختيار الحر المطلق حين يتصرف فى عالم ميكانيكى لا بد أن يفسد آليته أو طبيعة تركيب اجزائه. والذهن شكل من أشكال المادة ووظيفة من وظائفها . ويقول فولتير متبعاً فى ذلك لوك . « ينبغى أن نقرر أنه من اليسير جدا على الله أن يضيف إلى المادة فكرا . (٢) وقدرة المادة على التفكير ليست معجزة أكبر من إمكان تأثير الذهن غير المادى على الجسم المادى . والنفس ليست إلا حياة الجسم وتفنى بفنائه ، وليس ثمة وحى مقدس سوى الطبيعة نفسها ، وهذا كاف، وهو معين لا ينضب . وقد يكون ثمة بعض النفع فى الدين ولكن الرجل الأريب لا يحتاج إليه تعزيزا للفضيلة . وغالبا ما استخدمه رجال الدين على مدى التاريخ لإرباك أذهان الناس ، على حين ابتز الملوك أموالهم . وينبغى تعريف الفضيلة على أساس الخير الاجتماعى لا على أساس طاعة الله ، ويجب ألا تتوقف على الثواب والعقاب بعد الموت .

وقرأ فولتير هذه الصفحات الخمس والسبعين على مدام دى شاتيلية

الى يبدو واضحاً إنها لم تشجعه على نشرها . ويبدو أنه أقرها على ذلك وطرح المخطوطة جانبا ، فلم تنشر قط طيلة حياته . وفوق هذا أصبح مقتنعاً بأن أية ميتافيزيقا عقلانية وأية محاولة لتفسير أصل العالم والإنسان وطبيعتهما ومصيرهما عن طريق العقل ستكون إلى الأبد فوق طاقة البشر . وقرأ الفلاسفة ولكن لم ترقه مناهجهم ، وذهب إلى أن « الأقدمين قالوا كل شيء فى الميتا فيزيقا وفى الأخلاق ، وأننا دائماً نعارضهم أو نكررهم. وكل الكتب الحديثة من هذا النوع هى مجرد تكرار معاد [٣] » ولا بد أنه تأثر بمنهج سبينوزا لأنه أجهد نفسه فى دحضه وتفنيده .

وعلى الرغم من تنصله وإنكاره لم يستطع أن يتغلب على ولعه بالخوض فى المسائل العويصة المستعصية.وبين الحين والحين فيما بين عامى ١٧٣٤—١٧٥٦ أخذ ينقب فى الميتافيزيقا واللاهوت . وظل حتى آخر حياته يؤسس إيمانه بالله على حجة التخطيط أو التدبير منذ البداية ، ولو أنه عمد إلى تسفيه التطرف فى الغائية (الاعتقاد بأن كل شيء فى الطبيعة مقصود به تحقيق غاية معينة) . « قد لا أومن بأن الأنوف قد صنعت لتكون جسرا مريحاً للنظارات ، ولكنى مقتنع بأنها صنعت لنشم بها [٤] » . « وأليس من أبشع السخف والحماقة أن نؤكد أن العين لم تصنع لتبصر والإذن لتسمع والمعدة لتهضم ؟ [٥] وعندما طرق مؤلف شاب الباب فى Les Delices (١٧٥٧) وقدم نفسه إلى فولتير على أنه « ملحد شاب مستعد لخدمته ، أجاب فولتير لى الشرف أن أستخدم ربوبيا ، وعلى الرغم من تعارض آرائنا سأقدم لك طعام العشاء الليلة ، وأقدم لك العمل غدا ، سأستفيد من ذراعيك وعضلاتك لا من رأسك وذهنك .[٦] أنه سمى نفسه ربوبيا ولكنه كان مؤمنا ، أى أن ألهه لم يكن قوة غير مجسمة تماثل الطبيعة بشكل أو بآخر ، ولكنه عقل واع يصمم العالم ويحكمه . وبعد ١٧٥٠ بصفة عامة أطلق على نفسه أنه مؤمن بوجود إله .[٧] وفى القاموس الفلسفى فى مقال « الإيمان بوجود الله

« كتب على أساس يمكن أن يبرر وصف كوندرسيه لفولتير بأنه رجل شديد التمسك بالدين :

« إن المؤمن الموحد بالله رجل مقتنع كل الاقتناع بوجود كائن أسمى فاضل قوى معا ، خلق كل الموجودات يعاقب على الخطايا دون قسوة ، ويثيب على صالح الأعمال فى رفق وحنان . إن المؤمن لا يعرف كيف يعاقب الله وكيف يثيب ، وكيف يعفو ، ويغفر لأنه لم تبلغ به الجرأة حدا يخدع معه نفسه بأنه يدرك كيف يتصرف الله ، ولكنه يعلم أن الله يفعل وإن الله عادل . إن العقبات التى تواجه العناية الإلهية لا تزعزع إيمانه لأنها مجرد عقبات ضخمة وليست اختبارات إنه يخضع نفسه لتلك العناية الإلهية ، ولو أنه لم يدرك منها إلا بعض آثارها وبعض المظاهر . إنه يحكم على الأشياء التى لا يراها بالأشياء التى يراها . ومن ثم فانه يرى أن هذه العنابة الإلهية تحيط بكل مكان وبكل زمان . وقد اتحد فى هذا المبدأ مع سائر الكون . فانه لا ينضم إلى أى من الشيع أو الطوائف التى تناقض نفسها . إن ديانته هى أقدم الديانات وأوسعها انتشاراً ، لأن العبادة البسيطة لله سبقت كل الأساليب والطرق فى العالم . . . أنه يؤمن بأن الديانة لا تقوم على آراء الميتا فيزيقا المبهمة التى يصعب سبرغورها ، ولا على الزخارف العقيمة ، بل تقوم على العبادة والتقديس والعدالة . إن عمل الخير عبادته والخضوع لله مذهبه . . . إنه يسخر من لوريتو ومكة ولكنه يغيث الملهوف ويدافع عن المظلوم [٨].

فهل كان فولتير مخلصا فى هذه الاعترافات ؟ إن بعض الباحثين ينسبها إلى الحيطة والحذر ، أو إلى الرغبة فى التحول إلى الالحاد خطوة خطوة ، [٩] أو إلى أمل فى أن يقلل غرس الإيمان الدينى فى خدمه من السرقة والاختلاس. وهناك فى كتابات فولتير قطع يبدو أنها تبرر هذا التفسير (اذا كان لديك قرية واحدة لتحكمها ، فينبغى أن يكون لها دين) [١٠] . إن أكثر الملاحظات اقتباسا عنه يبدو انها تهبط بالديانة الى مجرد منفعة عامة ، ولكن سياق الكلام يلقى على هذا البيت ضوء أكثر اشراقاً وإيضاحا . أنه يوجد فى

رسالة إلى مؤلف الدجالين الثلاثة « إذا لم يكن الإله موجودا فيجب أن نبتدعه ، ولكن الطبيعة بأسرها تصيح فينا أنه موجود فعلا .[١١] » والقصيدة كلها دعوة إلى الإيمان . إن فولتير يعود إلى قضية الإيمان بوجود اله واحد المرة بعد المرة ، وكأنما يرد على شكوكه . وفى السنوات العشر الأخيرة من حياته كتب ضد الالحاد قدر ماكتب ضد الديانة التقليدية وفى نفس الوقت شن حربا ضد المفهوم المألوف للرب بأنه إله الانتقام الذى قدر على معظم الناس الخلود فى عذاب الجحيم : « سيكون الجنس البشرى تعساً بائسا إلى أبعد حد إذا ألف ارتكاب الفظائع قدر ما يألف التصديق بها [١٢] وإذا كان الرب قد خلق الإنسان على صورته فقد جازيناه على ذلك خير الجزاء[١٣] بتصويره على صورتنا . ولا شيء يوضح مفهوم الإنسان عن نفسه أكثر من فكرته عن الله » .

وحاول فولتير جاهدا أن يوفق بين إيمانه بإله واحد وبين وجود الشر. وفى محاولاته لتبرير العدل الإلهى لوجود الشر اقترب من تفاؤل ليبنتز (الذى عمد إلى تسفيهه فى كانديد) إن الشر من وجهة نظر الجزء قد يكون خيرا ، وعلى الأقل ليس شرا فى منظور الكل . إن هذا ليس أحسن عالم يمكن تصوره بل أكثر ما يحتمل وجوده .[١٤] وكتب فولتير إلى فردريك ١٧٣٨ يقول : « إذا حسب كل شيء وقدر أحسن تقدير فإن فى هذه الحياة متع لا تعد ولا تحصى أكثر مما فيها من مرارة .[١٥] » ولكن هذا كتب فى سنوات صحته وعافيته فى أواسط عمره . ولم يؤمن بأن الإنسان شرير بالطبيعة بل على النقيض من ذلك اعتقد أن فى الإنسان إحساساً فطريا بالعدالة وشعورا طيبا بالود نحو الآخرين [١٦] وهنا فوارق وتناقضات لا حصر لها فى الأفكار الأخلاقية لدى الجنس البشرى وفى عاداته . ولكن الشعوب تستنكر قتل الوالدين وقتل الإخوة والأخوات [١٧] .

وفى بوتسدام ١٧٥٢ نظم قصيدة « القانون الطبيعى » (نشرت فى ١٧٥٦) التى لخصت ديانته الطبيعية . «وحيث اتخذت القصيدة شكل رسالة إلى فردريك

الثانى المتشكك فإنه كان من الصعب أن تكون محاولة لإرضاء الأتقياء ، ولكنها تقترب من التقوى والعقيدة القويمة أكثر من أى شىء آخر طبعه فولتير . إنها لم تؤكد الإيمان بالله الخـــالق فحسب ولكنها كذلك تصف الإحساس الخلقى عند الإنسان بأنه من غرس الرب [١٨] . إنه هنا يتحدث كما يتحدث روسو ويستبق حماسة كانت للسلطان المطلق للضمير . أنه يحدد ديانته فى سطر واحد : « أعبد الله وكن عادلا وأحب وطنك » . [١٩] ويعرض تنوع العقيدة الدينية ويرثى للكراهية والتعصب ويدعو إلى تسامح متبادل بين مختلف المذاهب والشيع ، ويختم بدعاء كان يمكن أن يقره أى قديس . وفى ٢٣ يناير ١٧٥٩ أمر برلمان باريس باحراق القصيدة علنا . ويحتمل أن يكون هذا بسبب أن بعض أبياتها استنكرت الجانسنية .

وقد تخلص إلى القول بأنه حتى عام ١٧٥١ — إلى أن بلغ فولتير السابعة والخمسين تورع عن أى هجوم مباشر صريح على على المسيحية أو الكنيسة الكاثوليكية . فماذا أثاره وحفزه لشن الحرب فى نفس الوقت الذى جنح فيه معظم الثائرين إلى السلم؟أنه كان وقت صدور دائرة المعارف ، والتفسيرات الدينية التقليدية لزلزال لشبونه ، والإعدام الوحشى لـكل من جان كالا Calas وشيفالييه دى لابار De La Barre .

٢ - فولتير ودائرة المعارف

كان فولتير فى بوتسدام حين نشر المجلد الأول من دائرة المعارف (١٧٥١) . ولا بد أنه قرأ وهو مغتبط أشد الاغتباط السطور التى كتبها دالمبير تقديراً لفولتير وثناء عليه فى « ... » حيث قال « قد لا أوفى هذه العبقرية الفذه حقها من الاجلال والمديح مما لقيه كثيرا من مواطنيه ومن الأجانب ومن أعدائه ، ومما ستضيف إليه الأجيال المقبلة كثيرا حين يعود غير قادر على الاستمتاع بالإطراء والثناء » . ورد فولتير على هذه التحية فى رسالة مؤرخة ٥ سبتمبر ١٧٥٢ إلى دالمبير قال فيها « إنك وديدرو تقومان بعمل

obeikandi.com

سيكون فيه فخار فرنسا ومجدها ، وعار وخزى لهؤلاء الذين يضطهدونكما أو يقفون فى طريقكما . أنا لا أعترف من بين الفلاسفة البلغاء الأبلك وبه » وعاهد نفسه على مساندته وتأييده ، ولم يضيع أى فرصة لجذب الأنظار إلى المشروع باعتباره « عملا ضخما خالدا يتهم قصر الحيــاة الإنسانية ويندد به (٢٠) » .

ومهما يكن من أمر انشغال فولتير بأعماله الكبرى ـــ قرن لويس الرابع عشر ، ورسالة فى الأعراف والعادات ، وتورطه مع هرشلك وموبرتوى وفردريك فانه وجد فسحة من الوقت ليرسل إلى دالمبير (١٧٥٣) بمقالات موجزة : « مجرد مادة يمكنك تبويبها كيف تشاء وضمها إلى الصرح الخالد الذى تقيمه . إنى أمدك ببعض لبنات تضعها فى أية زاوية فى البناء » (٢١) . وتوسل إلى الأصدقاء ذوى النفوذ أن يعملوا على حماية المحررين . وفى ١٧٥٥ كتب إلى دالمبير « ما دام فىّ عرق ينبض بالحياة سأكون فى خدمة مؤلفى الموسوعة اللامعين ، وإنى لاعتبره شرفا كبيراً لى أن أسهم ولو بقدر ضئيل فى أعظم وأجمل أثر باق للأمة وللأدب » (٢٢) وأرفق بهذه الرسالة مقالات عن النار والقوة والفسوق والعبقرية الفرنسية والذوق الفرنسى . وأطلع على المجلدات الخمسة الأولى مدققا فاحصا ، فوجد أجزاء كثيرة جديرة بالثناء ، كما حزن ورثى لبعض الأجزاء الأخرى ، وطلب إلى المحررين أن يطالبوا كل الكتاب بالوضوح والإيجاز ، وحذر دالمبير (الذى ظنه خطأ رئيس التحرير) بقوله « إن معاونيك ضعاف فهناك جنود غير صالحين فى جيش القائد العظيم . . يؤسفنى أن أجد فى مقال « الجحيم » أن الكاتب يعلن أن الجحيم واردة فى شريعة موسى ، وأقسم لك الآن بكل الشياطين أن هذا غير صحيح (٢٣) .

وسرعان ما بعث بعدة مقالات صغيرة وببحث ضخم فى التاريخ . وحرض قسيسا عالما من لوزان هو أنطوان نوى دى بولبيه Noe de Polies على أن يكتب الدائرة المعارف مقالات عن « الماجيين والسحر والسحرة وعن المخلص

المنتظر » . وكلها تعج بالهرطقه فى هدوء وقد رأينا كيف أن فولتير كان مسئولا إلى حد ما عن مقال دالمبير عن جنيف ١٧٥٧ ، وخفف من هذه العاصفة التى ثارت بسبب هذه المقالات بدعوة الكاهن المخدوع إلى العشاء . وحين أوشكت الكارثة أن تنزل بمشروع دائرة المعارف وتهدد بتوقفها عن الظهور ، كتب إلى ديدرو :

« أى ديدرو الشجاع ودالمبير الجسور : امضيا فى طريقكما . . هاجما الأوغاد ، واقضيا على تخرصاتهم الجوفاء وسفسطتهم الحقيرة وأكاذيبهم التاريخية وتناقضاتهم وسخافاتهم التى لا حصر لها ... لا تدعوا رجال الفكر أرقاء مستعبدين لمن لا يتحلون بشىء من الفكر والذكاء . إن الجيل القادم سيكون مدينا لكما بالعقل والحرية »(٢٤) .

ولم يجب ديدرو على هذه الرسالة ، وأصر دالمبير على الانسحاب من المشروع . أما فولتير فخانته شجاعته وساءه صمت ديدرو ، ومن ثم قرر أن ينفض يديه من العمل . وفى ٦ أو ٧ فبراير كتب ثانية إلى ديدرو يطلب إليه إعادة المقالات التى لم تنشر ، فأجاب ديدرو بأن المخطوطات عند دالمبير ولكن إذا كرر فولتير طلب إعادتها إليه فأنه لن ينسى هذه الإساءة . وفى ٢٦ فبراير كتب فولتير إلى دارجنتال يقول : « إنى أحب ديدرو واحترمه ولكنى غاضب » . ولكنه كتب إليه مرة أخرى فى ١٢ مارس : « إذا التقيت بهذا الرجل الطيب ديدرو ، فأبلغ هذا العبد المسكين أنى أغفر له قدر ما أشفق عليه من كل قلبى »(٢٥) وفى مايو أرسل دالمبير المقالات المطلوبة إلى فولتير . ولكن دالمبير استأنف العمل فى دائرة المعارف فى شهر يونيه ، فأرسل فولتير المقالات إليه ثانية . ولكنه طلب عدم ذكر أسمه إذا نشرت . واقترح نقل المشروع إلى بلد آخر لا يتعرض فيه لعنت الرقابة فعلا أو توجسا . ورأى ديدرو أن هذا الاقتراح غير عملى . وفقد فولتير ثقته فى قيمة موسوعة ضخمة باهظة التكاليف وسيلة لنشر الفكر المتحرر . وفى ٢٦ يونية ١٧٥٨

أبلغ ديدرو أن مشاغله الأخرى قد تجعل من المتعذر عليه أن يسهم فى الموسوعة فضلا عن أن تأزم الأمور بين المحررين والحكومة والكنيسة « قد يضطر الإنسان إلى الكذب ، وأنا لنلقى الاضطهاد والتعذيب إذا لم نمض فى الكذب »(٢٦) إن الضجة التى أحدثها كتاب هلفشيوس « الذكاء »(فى يوليه) أزعجت الثائر العجوز ، فكتب ردا على ذاك الكتاب . وفى ١٦ نوفمبر أبلغ ديدرو أنه ابتـــاع دارا فى فرنى واعتزم أن يقيم هناك ويحيا حياة ريفية هادئة .

فهل كان يخدع نفسه ، أو أنه كان يدبر استئناف القتال بوسائل أخرى؟

٣ – لاهوت الزلازل

بينما كانت الموسوعة تكبو وتفيق وتختفى وتنبعث من جديد ارتعدت فرائص الفلسفة الأوربية نتيجة لزلزال لشبونه ففى الساعة التاسعة وأربعين دقيقة من صباح أول نوفمبر ١٧٥٥ – يوم عيد كل القديسين – هزت الأرض كتفيها فى البرتغال وشمال أفريقية . وفى ست دقائق تهدمت ثلاثون كنيسة وألف منزل ، ومات خمسة عشر ألف رجل ، وأصيب مثلهم باصابات خطيرة ، فى واحدة من أجمل العواصم فى العالم . ولم يكن ثمة شيء جديد لم يسبق له مثيل فى هذه المذبحة الرهيبة التى حدث فيها الموت بالجملة . ولكن كانت هناك بعض ملابسات وظروف محيطة حيرت رجال اللاهوت ، وأقلقت بالهم . لماذا اختار هذا اللغز المحير مثل هذه المدينة الكاثوليكية ، ومثل هذا الاحتفال المقدس ، فى مثل هذه الساعة التى اجتمع فيها كل المواطنين الاتقياء تقريباً لحضور القداس ؟ ولمـاذا أبقى وسط هذا الدمار الشامل على دارسيا ستيو دى كارفالو ميللو مركيز بومبال فيما بعد – الوزير الآمر الناهى الذى كان ألد أعداء اليسوعيين فى أوربا بأسرها ؟

وأوضح مالاجريدا أحد اليسوعيين البرتغاليين أن الزلزال وما أعقبه من أمواج عاتية مدمرة كانا عقابا من الله على الرذيلة التى استشرت فى

لشبونة.[٢٧] ولكن هل كان الآثمون هم وحدهم الذين ذهبوا للصلاة فى الكنائس فى هذا الصباح الرهيب ؟ ولماذا هلك كثير من القساوسة المتبتلين والراهبات المتفانيات فى الاخلاص للدين فى الزلزال والحريق ؟ وربما هلل المسلمون للكارثة باعتبارها إنتقاماً إلهياً من محاكم التفتيش فى البرتغال ، ولكن الزلزال دمر المسجد الكبير الذى يحمل إسم المنصور فى الرباط . وعزا بعض الكهنة البروتستانت فى لندن هذه الكارثة لاستنكار السماء لجرائم الكاثوليك ضد الانسانية . ولكن فى ١٩ نوفمبر من نفس العام دمر الزلزال خمسة عشر ألف منزل فى بوسطن مساشوست موطن الحجاج والبيوريتانيين . وأعلن وليم ووربرتون أن مذبحة لشبونة « أبرزت عظمة الله فى أبهى صورها[٢٨] وألقى جون ويزلى موعظة عن أسباب الزلازل وعلاجها قال فيها « إن الخطيئة هى السبب المعنوى للزلازل مهما كان سببها الطبيعى . . . إن الزلازل هى نتيجة اللعنة التى صبتها على الأرض خطيئة آدم وحواء الأولى[٢٩] » .

واستشاط فولتير غضباً لهذه التفسيرات ، ولكنه هو نفسه لم يجد شيئاً يوفق به بين الحادث وبين إيمانه بإله عادل « أين الآن قول ليبنتز « أحسن العوالم الممكنة » أو قول بوب « كل ما هو موجود هو حسن » ؟[٣٠] ونظم فولتير كرد فعل غاضب لتفاؤله السابق أعظم قصيدة له « كارثة لشبونة اختبار للحقيقة المقررة « كل شىء حسن » وهنا نغتنم الفرصة لنقتطف نموذجا من فكرة شعره :

« آه أيتها المخلوقات الفانية التعسة . أيها الأرض المحزنة ، أيها الجمع الرهيب من بنى البشر . أيها المستقر الخالد لكل البلايا العقيمة الفاجعة ، أيها الحكماء الحمقى الذين ينادون بأعلى صوت كل شىء حسن ، تعالوا وتأملوا هذه الخرائب والأطلال الرهيبة ؛ وهذا الحطام وأشلاء ورماد جثث بنى جنسكم ، وأنظرو إلى النساء والأطفال الذين حصدهم الموت بالجملة ، إلى الأعضاء المتناثرة تحت الأعمدة المحطمة . لقد التهمت الأرض مائة ألف حالفهم النحس ، لقد سالت دماؤهم وتمزقت أوصالهم ، واندفنوا وهم أحياء

تحت السقوف التى إنهارت عليهم ، فأنهوا دون أية مساعدة أيامهم التى تبعث على الأسى فى عذاب كريه . هل تواجهون صيحاتهم الضعيفة التى تؤذن بالفناء ، والدخان المتصاعد فى هذا المنظر البشع بقولكم هـذا جرى وفق قوانين أبدية طبقا لمشيئة الله المطلقة الخيرة ؟ وهـل تقولون أمام هذه الأكداس من الضحايا لقد إنتقم الله منهم لـ إن موتهم جزاء جرائهم ؟ » .

ولكن أية جريمة وأى خطأ ارتكب هؤلاء الأطفال الذين اغتالهم الزلزال وسالت دماؤهم وهم فى أحضان أمهاتهم ؟ وهل كانت رذائل لندن أو باريس أقل من رذائل لشبونة ؟ ومع ذلك دمرت اشبونة وباريس ترقص ؟ ألم يكن فى مقدور الله العليم الخبير أن يصنع عالما ليس فيه هذا الشقاء الذى لا معنى له ؟ إنى أجل إلهى ولكنى أحب الجنس البشرى .

إن الشاعر يتأمل فى عالم الحياة فيرى فى كل مكان وعلى ألف صورة متباينة تنازعاً على البقاء يلقى فيه كل كائن حتفه إن عاجلا أو آجلا . إن هذه الخلاصة المريرة لعلم الحياة (للبيولوجيا) تتطلب أن نورد النص :

« إن الصقر الضارى ينقض على فريسته المخلوعة الفؤاد ويتلذذ مبتهجاً بالتهام أوصالها الدامية ، وكل شىء يبدو فى نظره على ما يرام ، ولكن سرعان ما يأتى نسر كاسر ويلتهم بمنقاره الحاد الصقر بدوره ، ثم يعاجل الإنسان هذا النسر المتكبر بطلقة تصبب منه مقتلا . ويتوسد الإنسان التراب على أرض المعركة ينزف الدم وقد أثخنته الضربات وسط كومة من الموتى . وهناك يكون غذاء رهيباً للطيور النهمة . وهكذا تئن الدنيا بكل من فيها حيث ولدت كلها لتشقى وتعانى ، ويكون مصيرها الموت المتبادل . وفى هذه الفوضى القاتلة تبنى على تعاسة البعض سعادة المجموع ، أية سعادة هذه ؟ أيها المخلوق الفانى الضعيف البائس ، أنك تصيح فى نعمة حزينة « إن كل شىء حسن على ما يرام » إن الكون يقدم لك الكذبة ، وقلبك يفند مائة مرة خطأ ذهنك . إن العناصر والحيوان والإنسان كلها فى صراع . فلنعترف بأن الشر ملأ الأرض واستشرى فيها .

وكيف يتفق هذا الصراع الكونى الشامل وهذا الموت المذل المؤلم مع الإيمان بإله خير طيب ؟ إن الله موجود ، ولكنه لغز محير . إنه يبعث بابنه ليخلص الجنس البشرى ، ولكن الأرض والانسان بقيا على ماهما عليه على الرغم من تضحيته .

ماذا يمكن أن يقول أوسع العقول مدى فى هذا ؟ لاشىء فان كتاب القدر محجوب عن أبصارنا . فالإنسان وهو الغريب الأجنبى بالنسبة لنفسه ، مجهول لدى الإنسان . من أنا ؟ وأين أكون ؟ إلى أين أنا ذاهب؟ ومن أين أتيت؟ ان الذرات تتعذب على هذه الكومة من الطين ، ويحصدها الموت ويلعب بها القدر . ومع ذلك فانها الذرات المفكرة التى قاست اعينها ورصدت مافى السموات بهدى من الفكر . إننا نخترق بأذهاننا وعقولنا هذا الكون اللانهائى ، ولكننا لانستطيع للحظة واحدة أن نرى أو نعرف أنفسنا » .

وتلك بطبيعة الحال هى النغمة التى ضرب عليها بسكال قبل مائة عام فى نثر أروع من شعر فولتير . وكان فولتير قد نبذ يوماً بسكال واستهجنه ، ولكنه الآن يردد تشاؤمه . وعلى أساس هذا التشاؤم نفسه خلص بسكال إلى قوله : فلنركن إلى العقيدة المسيحية ونتعلق بالأمل . وختم فولتير قصيدته فى الأصل ببيتين كئيبين رواقيين : ماذا يجب علينا أن نفعل أيها الفانون؟ يجب علينا أن نقاسى ونخضع فى صمت ونعبد ونموت » . واحتج أصدقاؤه بأن هذه الخاتمة البائسة غير محتملة فغير السطر الأخير إلى اخضعوا واعبدوا وأملوا وموتوا ولم يشعر أحد بالرضا فاستسلم وأضاف ٢٩ بيتاً ، وأسلم نفسه للعناية الإلهية مؤمناً بأن « الله وحده على حق » .

وعلى الرغم من ذلك فان القصيدة لم تذهل المتدينين فقط ، بل أذهلت الفلاسفة كذلك . فان مثل هذه النغمة الكئيبة الجزوعة يبدو أنها أحرجت الفلاسفة وأرسل روسو إلى فولتير رسالة طويلة بليغه يوضح فيها إن كل ما تعانى الانسانية من علل وشرور ، إن هو الانتيجة لأخطاء البشر ، وأن زلزال لشبونه هو عقاب عادل للإنسان لتخلبه عن الحياة الطبيعية

وإقامته فى المدن ، ولو أن الناس التزموا الحياة البسيطة فى القرى المتفرقة فى دور متواضعة فلربما كانت الضحايا قليلة نسبياً ، وينبغى أن نؤمن بأن الله طيب خير ، لأن هذا كما قال جان جاك هو البديل الوحيد للتشاؤم القاتل ، وأن نستمر مع ليبنتز ، على الإيمان بأنه حيث إن الله خلق هذا العالم ، فلابد أن يكون كل شىء فيه على المدى الطويل وبالنظرة البعيدة حقاً وصدقاً . وحصل أحد أصحاب المطابع على هذه الرسالة ونشرها فلقيت أكبر الترحيب على أوسع نطاق ، رداً بارعاً على قصيدة فولتير ، ولزم فولتير الصمت لمدة أطول مما كان مألوفاً . ولما عاد للخوض ثانية فى موضوع التفاؤل خرج على الناس بأروع أعماله وهو كتاب ظل حديث العالم لمدة جيل ، وهو الآن أعظم وأبقى أثر ورمز لفولتير .

٤ — كانديد

نشر هذا الكتاب فى أوائل عام ١٧٥٩ تحت أسم Candide أو التفاؤل ، مع الأيهام بأنه مترجم عن الإلمانية عن كتاب دكتور رالف ، مع اضافات وجدت فى جيب الدكتور عند وفاته فى ميندن Minden . وأمر المجلس الكبير بأحراق الكتاب فور صدوره تقريبا (٥ مارس) وأنكر فولتير بطبيعة الحال أنه مؤلفه . وكتب إلى قسيس صديق له فى جنيف « لأبد أن الناس فقدوا عقولهم لينسبوا إلى هذه المجموعة من الهراء . إن عندى ولله الحمد والشكر ما شغلنى خيراً منه[٣١] ولكن فرنسا أجمعت على أنه ما كان فى مقدور أحد غير فولتير أن يكتب « كانديد » . فهنا كان النشر البسيط بشكل خداع الذى يتدفق برفق والذى يتميز بمرح خفيف وتهكم لاذع شيطانى مما يستطيع هو وحده أن يكتبه . وهنا وهناك فى الكتاب قليل من الفحش والبذاءة وقليل من الأدب الداعر ، وفى كل مكان عبارات هازلة غاضبة مهلكة تنم على عدم التوقير . فإذا كان الأسلوب هو الرجل فلابد أن يكون هذا فولتير .

أنه يبدأ بريئا ، ولكنه سرعان ما ينم على العين النافذة البراقة :

« فى إقليم وستفاليا فى قصر أنبل البارونات ثندر — تن — ترونخ Thunder-ten-Tronckh ، عاش شاب حبته الطبيعة أحلى مزاج وأكرم خلق . . . وكان سديد الرأى صائب الحكم ، إلى جانب ما تحلى به من بساطة بعيدة عن التكلف كل البعد ، ولهذا السبب فيما أعتقد سمى « كانديد » . أن الخدام القدامى فى القصر أرتابوا فى أن يكون ابن أخت البارون من رجل طيب شريف من الجيران رفضت تلك الآنسة أن تتزوج منه لأنه لم يكن يستطيع أن يصل بنسبه إلى أكثر من واحد وسبعين شريفا . وكان غير أهل للزواج ، ولكنه واف بالمراد فى الفراش ، وكان يتولى تربية الولد الوسيم غير الشرعى وتعليمه الأستاذ بانجلوس Pangloss (الكثير الكلام) الذى يستطيع أن يثبت إلى حد الأعجاب أنه ليس ثمة نتيجة دون علة أو سبب ، وأنه فى أحسن هذه العوالم الممكنة ، فإن قصر البارون هو أفخم القصور ، وأن ميلادى أحسن بارونه يمكن وجودها (على الرغم من أنها تزن ٣٥٠ رطلا) وقال أنه يمكن إقامة الدليل على أنه لا يمكن أن تكون الأشياء على غير ما عليه لأن كل الأشياء خلقت لبعض الغايات ، فلابد أنها بالضرورة خلقت لا حسن الغايات . لا حظ مثلا أن الأنف شكلت للنظارة ولهذا نلبس النظارات ، وواضح أن الأرجل صممت للجوارب ولهذا نلبس الجوارب ... أن هؤلاء الذين يؤكدون أن كل شىء صحيح حق ، يخطئون التعبير ، وجدير بهم أن يقولوا أن كل شىء هو أفضل شىء » .

أن كانديد « أنصت فى أنتباه شديد وآمن ضمنا » لأن الآنسة كونيجوند أبنة البارون كان واضحا أنها أحسن وأجمل مخلوقة يمكن وجودها . وتجذبه إلى حبها ويقع فى شراك غرامها ، ويوسعه البارون ضربا ويطرده من القصر .

ويجوب كانديد الآفاق ، ويأسره ضباط التجنيد ، ويرغمونه على اللحاق بالجيش البلغارى (هنا يعود فولتير بذاكرته إلى الجيش البروسى) ، وهنا جعلوه ينعطف يمينا ويسارا وينزع بندقيته ثم يعيدها ويصوبها ويطلق

النار ويسير . وجلدوه ثلاثين ضربة بالعصا » أنه يشهد المعركة ثم يتخلى عنها ، ويلتقى بالأستاذ بانجلوس الذى كاد أن يفقد آخر جزء فى أنفه ، وعما قريب سيفقد أحدى عينيه وأحدى أذنيه لا فراطه فى الأقتراب من البغى الجميلة « باكت » التى أصابها داء عضال عن طريق العدوى من أحد الأخوة الفرنسيسكان العلماء كورد لييه ، وكان قد انتقل إليه هذا المرض عن طريق العدوى من كونتيسة عجوز كانت قد أصيبت به من أحد قواد الفرسان الذى نقله عن مركيزة نسبته إلى أحد الغلمان كان قد أصيب به بالعدوى من أحد اليسوعين . وكان المرض قد انتقل إلى هـذا الأخير من أحد رفاق كرستوفركولمبس(٣٢) .

وتحطمت سفينة كانديد وبانجلوس بالقرب من لشبونه ، ووصلا إلى الشاطىء ساعة حدوث الزلزال ، وكتب لهما البقاء على قيد الحياة ، ولـكن محكمة التفتيش تقبض عليهما بتهمة الهرطقة ، ويعدم بانجلوس شنقاً . أما كانديد فيتمكن من الهرب بمعونة كونيجوند التى كان الجنود قد اختطفوها ثم بيعت لأحد اليهود ، ثم بيعت مؤخراً لأحد رؤساء محكمة التفتيش . وتمكن كانديد وكونيجوند من الهرب بمساعدة سيدة عجوز أخرست شكاواهما بقولها أنها كانت على وشك أن يلتهمها الأتراك الذين كانوا يتضورون جوعا فى حصار آزور . وكانت قد وقعت أسيرة فى أيديهم ، ولكن برحمة من القدر نصف الأعمى بدأوا بقطع أحد ردفى كل أمرأة يمكن العثور عليها . وانتهى الحصار قبل المضى فى التجربة . وتختتم السيدة العجوز كلامها بقولها « كفا الآن عن النوح والتوجع لبؤسكما وتعاستكما ، وابتهجا لأنكما تستطيعان الجلوس على رد فيكما كليهما » .

ويعبران المحيط الأطلنطى على أمل أن تكون الدنيا الجديدة أقل قساوة من القديمة . وفى يونس أيرس يستولى قائد الموقع على كونيجوند ويختص بها نفسه ويأمر بابعاد كانديد ، فيدخل المستعمرة اليسوعية فى باراجوى ويجد هناك شقيق كونيجوند الذى يهاجمه لمجرد تجاسره على التفكير فى الزواج

منها ، فيرديه كانديد قتيلا ، ويستأنف تجواله وحيدا بائسا ، حتى يصل فجأة في واد منعزل فى بيرو إلى « الدرادو » حيث يكثر الذهب إلى درجة لا يقدر فيها أحد قيمته . وهى أرض لا يوجد فيها مال ولا سجون ولا محامون ولا كهنة ولا أى صراع اقتصادى . ويعمر أهلها السعداء لمائتى عام ، وليس لهم ديانة الاعبادة بسيطة لإله واحد . ويحمل كانديد بعض الذهب ويغادر المكان ، ولا يزال قلبه يهفو إلى كونيجوند . ويبحر عائداً إلى أوربا ويصل إلى بور تسموث ليجد من فوره أن أمير البحرين Byng قد أعدم رميا بالرصاص لأنه خسر معركة . ويقول مارتن صديق كانديد الجديد أنهم يعتبرون من الحكمة فى هذه البلاد أن يقتلوا أحد أمراء البحر بين الحين والحين ليستحثوا همم الآخرين ويشجعوهم(٣٣) .

وعلم كانديد أن كونيجوند فى البندقية فيستقل السفينة إلى إيطاليا ويكتئب ويحس بالضيق والحزن حين يسمع عما تعانى البغايا . ويستمع إلى غناء أصحاب الزوارق فى فينيسيا ويخلص إلى أنه قد وجد بعض أناس سعداء . ولكن مارتن ينتهر بقوله « أنت لا تراهم فى بيوتهم بين زوجاتهم وأطفالهم . أن للأزواج ما يشغل بالهم ويحزنهم ، ولأصحاب الجندولات (الزوارق) ما يقلقهم كذلك . حقاً أن صاحب الزورق فى الجملة أسعد حظا من الدوج ، ولكنى أعتقد أن الفرق بينهما طفيف لا يستحق التفكير فيه(٣٤) .

إن كونيجوند ليست فى البندقية . إنها فى الأستانة ويهرع إليها كانديد ليجد أنها باتت الآن أمة عجوزا شوهاء . ومع ذلك يحررها ويتزوجها . ويلحق بانجلوس الذى لم تقض عليه محكمة التفتيش تماماً بتلميذه . ويستأنف دفاعه عن التفاؤل ، ويلتقون برجل سعيد تقريباً فيرحب بهم ويقدم لهم فاكهة وجوزا من غرس البيت . ويسأله كانديد « لأبد أن لك ضيعة كبيرة » فيجيب الرجل التركى ليس عندى إلا ٢٠ فدانا أفلحها مع أولادى . وإن عملنا ليباعد بيننا وبين ثلاث مساوئ جسيمة : السأم والرذيلة والحاجة(٣٥) . ويقرر كانديد أن يحذو حذو هـذا الرجل التركى « ويعمد

هو وكوينجوند وأصدقاؤهما إلى فلح قطعة من الأرض يزرعون فيها غذاءهم وتقوم المرأة ذات الردف الواحد وبغى صلح شأنها وصديقها الأخ الراهب بمهام كثيرة . إنهم يجدون فى العمل ويلقون فى عملهم نصباً ، ويأكلون ، ويتولاهم بعض الضجر ولكنهم إلى حد ما راضون قانعون . ويحاول بانجلوس أن يثبت أن هذا أفضل العوالم الممكنة ، حيث أن معاناتهم أدت بهم إلى هذا الهدوء والسلام . فيجيب كانديد بأن هذا كلام جميل ولكن علينا أن نزرع جنتنا . وتنتهى القصة القصيرة .

وكان فولتير قد حاول تضمين قصة المغامرة والحب شيئا من الهجاء اللاذع لما ذهب إليه ليبنتز من تبرير العدالة الإلهية فى وجود الشر ، ولتفاؤل بوب ، ولمساوىء الدين ، وحوادث العشق والغرام فى الأدبار ، والصراع الطبقى والفساد السياسى ، والحيل الشرعية والرشاوى القضائية ، ووحشية قانون العقوبات ، وجور الاسترقاق ، وما تجره الحرب من خراب ودمار . وكانت قصة كانديد قد ألفت حين كانت حرب السنين السبع دائرة سجالا بين النصر والخراب والدمار والموت . وأطلق فلوبرت على تحفة فولتير خلاصة أعماله[٣٦] . ولم تخل كانديد من عيب معظم الهجاء وهو المبالغة السخيفة ، ولكن فولتير كان يعلم تمام العلم أن قليلا من الرجال يواجهون هذه السلسلة المريرة من الكوارث مثلما واجهها كانديد . ولابد أنه عرف كذلك أنه على الرغم من أنه حسن أن يزرع الإنسان حديقته وأن يتقن المرء عمله الفردى المباشر ، فانه من الخير كذلك ألا تقتصر أرباحه على ما يعود عليه من حقله . أنه فلح حديقته فى فرنى على أحسن وجه . ولكنه ملأ أوربا صراخا واحتجاجا على إعدام كالاس .

٥ — ضمير أوربا

كان جان كالاس أحد أفراد جماعة صغيرة من الهيجونوت — البروتستانت الكالفنيين تركت فى تولوز بعد قرن من الاضطهاد ومصادرة الأملاك والتحول الجبرى إلى الكثلكة . ولم يستبعد القانون الفرنسى البروتستانت من الوظائف

العامة فحسب ، بل أعلن كذلك أنه لايسوغ لهم أن يشتغلوا محامين أو أطباء أو صيادلة أو قابلات أو باعة كتب أو صانعين أو بقالين . وإذا لم يكن قد سبق تعميدهم فليس لهم أية حقوق مدنية أيا كانت . وإذا لم يكن قد تم زواجهن على يد قسيس كاثوليكي كان زواجهم باطلا ، وكأنما يعيشون مع خليلات لاحليلات ، واعتبر أبناؤهم غير شرعيين [٣٧] والخدمات والقداسات البروتستانتية محظورة . وكان الرجال الذين يحضرونها يعاقبون بارسالهم للتجديف مدى الحياة . أما النساء فكان عقابهن السجن مدى الحياة . وعقاب الكهنة الذين يقيمون مثل هذه القداسات الاعدام . ولم تكن هذه القوانين مطبقة تطبيقا صارما فى باريس أو قريبا منها ، وتفاوتت صرامة هذه القوانين تبعا للبعد عن العاصمة .

وكانت الاحقاد الدينية حادة بصفة خاصة فى جنوب فرنسا . وكان الصراع بين الكاثوليك والهيجونوت عنيفاً لا هوادة ولا رحمة فيه . وكانت الفظائع التى ارتكبها الطرفان لاتزال حية فى الأذهان . وكان الكاثوليك المنتصرون قد قتلوا فى تولوز فى ١٥٦٢ ثلاثة آلاف من الهيجونوت ، كما حكم برلمان تولوز على مائتين آخرين بالتعذيب حتى الموت [٣٨] . وأحيا كاثوليك تولوز فى كل عام ذكرى هذه المذبحة فى احتفالات شاكرة ومواكب دينية مهيبة . وطافت نقابات المهنيين ومختلف طبقات النبلاء ورجال الدين وجماعات « النادمين البيض والسود والرماديين » بشوارع المدينة فى هيبة وجلال حاملين مخلفات رهيبة : جمجمة رئيس أساقفة تولوز الأول ، قطعة من ثوب العذراء ، وعظام أطفال قتلوا بمناسبة أسطورة هيرود « قتل الأبرياء » . وكان من سوء حظ كالاس أن تكون السنة القادمة هى ذكرى مرور مائتى عام على أحداث ١٥٦٢ .

إن برلمان تولوز الذى كان قوياً مسيطراً فى لنجدوك كما كان برلمان باريس فى وسط فرنسا ، كان يتحكم فيه الجانيسنيون — أى أنه برلمان كاثوليكى مع نزعة قوية إلى صرامة الكلفنيه وتزمتها وكآبتها . ولم يدخر وسعاً فى إثبات أنه أشد تمسكاً بالكثلكه من اليسوعيين أنفسهم . وفى ٢ مارس

١٧٦١ حكم بالاعـــدام على الراعى الهيجونوتى روشيت لإقامته قداساً بروتستانتيا ، كما حكم بالاعدام على ثلاثة رجال من كومت دى فوا حاولوا تخليص روشيت من أيدى الشرطة[٣٩] . وفى ٢٢ مارس أمر بتعذيب واعدام صاحب متجر بتهمة قتله إبناً له عرض أن يعتنق المذهب الكاثوليكى .

وإنصافاً للمتعصبين ينبغى القول بأن نظم العقيدة المسيحية عند الـكلفنيين وضعت أساساً لاعتقادهم بأنه من المرخص للوالد أن يقتل الابن العاق : وفى الأوقات التى كان القانون لايزال فيها ضعيفاً . والأسرة فيها هى المصدر الرئيسى أو الوحيد تقريباً للنظام والانضباط . منحت معظم المجتمعات الآباء حق إعدام أبنائهم أو الابقاء عليهم . ولابد أن شيئاً من هذا القانون الأبوى كان يعتمل فى ذهن كلفن حين كتب « إن الرب يأمر بقتل الأبناء العاقين لآبائهم[٤٠]. وأشار كلفن إلى سفر التثنية (الاصحاح ٢١ : الآيات ١٧ — ٢١) وإلى إنجيل متى (الاصحاح ١٥ : الآيات ٤ — ٦) إن هذه الآيات على أية حال تبيح للاباء أن يتهموا الابن المعاند أمام شيوخ مدينته ، الذين يمكنهم حينئذ أن يحكمو باعدامه (يرجمونه بالحجارة حتى يموت) . ولكن الكاثوليك المهتاجين فى جنوب فرنسا إرتابوا فى قدرة الهيجونوت على اللجوء إلى شيوخ المدينة ومن ثم يأخـــذون تطبيق هذا القانون القديم على عاتقهم هم أنفسهم .

ويجدر بنا أن ننظر من خلال هذه الخلفية الكئيبة القاتمة إلى قضية جان كالاس .

أنه كان تاجر ملابس كتانية . وكان له مخزن فى الشارع الرئيسى فى تولوز حيث أقام لمدة أربعين عاماً . وكان له ولزوجته أربعة أبناء وبنتان واحتفظوا طيلة ثلاثين عاماً بمربية كاثوليكية لاولادهم ، هى جين فنيير حتى بعد أن حولت أحد الأبناء ر.ى لويس إلى الكثلكة . وأقام لويس آنذاك فى شارع آخر تلميذاً صناعياً يتقاضى من أبيه راتباً بانتظام . واشتغل الابن

الأصغر ، دونات ، تلميذا صناعياً فى نيم وعاش الابنان الآخران ، بيير ومارك أنطوان مع والديهما . وكان مارك أنطوان ، وهو أكبرهما سناً ، قد درس القانون ، ولكنه حين تهيأ للاشتغال به وجد أن كل الأبواب موصدة إلا أمام الكاثوليك . وحاول أن يخفى مذهبه البروتستانتى ، وأن يحصل على شهادة بأنه كاثوليكى ولكن كشف أمره . وما كان له إلا أن يختار بين أمرين أحلاهما مر : إماأن يتخلى عن مذهبه البروتستانتى أو يضيع دراسة القانون هباء . واستبد به التفكير وعراه الاكتئاب ، وانغمس فى لعب الميسر والشراب وكان يحب أن يعيد عى مسامع الناس مناجاة هملت للانتحار (٤١) .

وفى ١٣ اكتوبر ١٧٦١ إجتمعت أسرة كالاس فى دارها فوق المخزن . وكان جوبير لافاييس ، وهو أحد أصدقاء مارك انطوان ، قد حضر لتوه من بوردو وقبل دعوة الوالد لتناول العشاء . ونزل مارك انطوان إلى المتجر وتساءل بيير ولافاييس عن السبب فى عدم عودته ، فنزلا يستطلعان الأمر فوجداه متدلياً من قضيب كان قد وضعه بين عضادتى الباب . فأنزلاه وناديا على الوالد واستدعيا طبيباً وحاول الجميع إنقاذه ولكن الطبيب أكد وفاته .

وهنا ارتكب الوالد خطأ جسيم . لقد عرف إن هناك قانوناً نافذ المفعول يقضى بأن يجر المنتحر عاريا فى شوارع المدينة . وأن يرجمه الأهالى بالطين والحجاره ثم يشنق وتصادر أملاكه للدولة . وتوسل الوالد إلى أسرته وحاول إقناعها بالقول بأن الوفاة طبيعيه (٤٢) وفى نفس الوقت كانت صيحات بيير واستدعاء الطبيب قد أدت إلى احتشاد جمع من الناس أمام باب الحانوت . وجاء الضابط واستمع إلى القصة التى رويت له . ورأى الحبل وشاهد الأثر الذى تركه فى عنق الرجل الميت . وأمر الأسرة ولافاييس وجين فنيين بالشخوص إلى دار البلدية . وهناك احتجزوا فى زنزانات مستقلة . وفى اليوم التالى سئل كل منهم فأقروا جميعاً أن الوفاة غير طبيعية وأكدوا أنه إنتحار . ولكن مدير الشرطة أبى أن يصدقهم ، واتهمهم بقتل مارك انطوان حتى

تحولوا بينه وبين الارتداد إلى الكثلكة . وأقر الاتهام الأهالى وكثير من أعضاء برلمان تولوز ، وأعمت حمى الانتقام بصائر الناس .

قد يكون من الصعب الآن أن يصدق أحدنا أن يعهد والد إلى قتل إبنه ليحول دون تغيير مذهبه الدينى ، وقد يكون مرجع ذلك إلى أننا نفكر تفكيراً تغلب عليه النزعة الفرديه . وبعد قرنين من الزمان تدهورت فيهما العقيدة الدينية . وفكر أهل تولز مجتمعين كجمهور ، والجماهير قد تشعر ولكن لاتفكر ، واشتدت صورة الغضب وحمى الانتقام نتيجة احتفال أقامه « النادمون البيض » فى كنيستهم ، وعلقوا فوق نعش خال هيكلا عظميا يحمل فى إحدى يديه نقشاً يدل على « تجنب الهرطقة » وفى الأخرى سعفاً يرمز إلى الاستشهاد ، وتحت هذا إسم « مارك » انطوان كالاس » « واقترضوا أن الشاب لم ينتحر فدفنوا الجثة باحتفال مهيب فى كنيسة سان ستيفن . وعبثا احتج بعض رجال الدين على أن هذا استباق للحكم فى قضية القتل(٤٣) .

وجرت محاكمة آل كالاس أمام الاثنى عشر قاضيا فى محكمة تولوز البلدية . وصدرت مذكرة تحذير تتلى فى ثلاثة أيام أحد متوالية فى كل كنيسة تدعو للأدلاء بالشهاده كل من يعرف شيئا عن ظروف الوفاة . وتقدم للشهادة عدة أشخاص وشهد أحد الحلاقين بأنه سمع فى تلك الليلة المشئومة صراخا من بيت أسرة كالاس : آه يالهى أنهم شنقونى « وادعى آخرون أنهم سمعوا مثل هذه الصيحات . وفى ١٠ نوفمبر ١٧٦١ إدانت محكمة تولوز البلدية جان كالاس وزوجته وأبنه بيير ، وأصدرت حكما بأعدامهم شنقا ، وحكمت على لافاييس بالتجديف فى المراكب الشراعية ، كما حكمت على جين فنير بالسجن لمدة خمسة أعوام . وكانت المربية الكاثوليكية قد أقسمت اليمين على براءة مخدوميها البروتستانت .

واستؤنف الحكم أمام برلمان تولوز الذى عين هيئة من ثلاثة عشر قاضيا استمعوا إلى ثلاثة وستين شاهداً آخرين . وإستند كل الشهود إلى الشائعات واستمرت المحاكة ثلاثة أشهر إحتجزت فيها أسرة كالاس ولا فاييس منفردين

وأذان الحكم النهائى الوالد فقط . ولم يستطع أحد أن يوضح كيف تسنى لرجل فى الرابعة والستين أن يتغلب دون مساعدة على أبنه الناضج المكتمل النمو ويشنقه . وأملت المحكمة أن يعترف كالاس تحت ضغط التعذيب ، ولكم من مرة نصحوه بالأعتراف ، وكم من مرة أكد أن مارك أنطوان إنتحر . وبعد راحة مدتها نصف ساعة خضع للتعذيب الشديد الاستثنائى حيث صبوا فى حلقه نحو « جالونين » من الماء ولكنه أصر على أنه برىء . ثم صبوا فى حلقه عنوه جالونين آخرين حتى انتفخ جسمه إلى ضعف جحمه الطبيعى . ولكنه ظل مصرا على براءته فسمح له بالتخلص من الماء ، فأخذوه إلى ميدان عام أمام الكاتدرائية ووضع على صليب وبأحدى عشرة ضربة من قضيب حديدى هشم الجلاد أطرافه فى موضعين وأعلن الرجل براءته ، وهو يهيب بيسوع المسيح لنجدته ، وبعد ساعتين من الآلام المبرحه شنق ثم شدوا جثمانه إلى خازوق وأحرق (١٠ مارس ١٧٦٢)[٤٤] .

وأطلق سراح المسجونين الآخرين . ولكن الدوله صادرت ممتلكات كالاس . وأسرعت الأرملة وبيير إلى مأوى خفى فى مونتوبان وأرسلت البنتان إلى ديرين مختلفين . ولما رأى دونات أنه مهدد بالخطر فى نيم هرب إلى جنيف . وإذ سمع فولتير بالمأساة دعا دونات إلى ملاقاته فى لى دليس فى ٢٢ مارس وكتب فولتير إلى داميلافيل « سألت دونات إذا كان أبوه وأمه من ذوى الطبع الحاد ، فأجاب أنهما لم يضربا أحدا من أبنائهما قط ، وأنه ليس ثمة آباء أشد منهما حناناً وتسامحا[٤٥] . وإستشار فولتير تاجرين من جنيف كانا قد أقاما مع كالاس فى تولوز ، فأكدا صدق ما قال دونات . وكتب إلى بعض الأصدقاء فى لنجدوك فأجاب الكاثوليك والبروتستانت جميعهم بأن جريمة الأسرة كانت فوق أى شك معقول[٤٦] وأتصل فولتير بالأرملة فبعثت إليه برد واضح فيه صدقها واخلاصها كل الوضوح ، إلى حد أنه حفزه إلى العمل والتصرف . فأهاب بالكاردينال دى برينس ، ودارجنتال ودوقة دى أنفيل ومركيزة دى نيقولاى والدوق دى ڤيللار والدوق دى ريشيليو ليتوسلوا

إلى وزيرى الملك شوازيل وسانت فلورتين ليأمرا باعادة النظر فى المحاكة . والحق دونات بأسرته وأحضر بيير كالأس إلى جنيف وأقنع مدام كالاس بالأقامة فى باريس حتى يكون من الميسور سؤالها والرجوع إليها . واستخدم محامين ليشيروا عليه بما يجب إتخاذه من إجراءات فنية قانونية فى القضية . ونشر كتيبا تحت عنوان « الوثائق الأصلية فى وفاة السيد كالاس[٤٧] » ، واتبعه بنشرات أخرى . وأهاب بسائر الكتاب أن يسخروا إقلامهم لايقاظ ضمير أوربا وأثارة الشعور فيها . وكتب إلى داميلافيل « أحتج ودع الأخرين يحتجون على قضية أسرة كالاس ، أرفعوا عقيريتكم بالاحتجاج على التعصب[٤٨] » كما كتب إلى دالمبير « أرفع صوتك فى كل مكان ، إستحلفك بالله من أجل آل كالاس ضد التعصب . إنهم فقدوا اعتبارهم نتيجة أتهامهم بهذا الجرم الشائن . وهذا هو سبب شقائهم وتعاستهم ، وحث على التبرع بالأموال لسد نفقات هذه الحملة التى تحمل الجزء الأكبر منها حتى هذه اللحظة . وأنهالت عليه التبرعات من كل جانب ، ومن ملكة انجلترا وإمبراطورة روسيا وملك بولنده . ووافق محام لامع من باريس على إعداد القضيه لرفعها إلى مجلس الدولة دون أن يتقاضى أجرا . وقصدت بنات كالاس إلى باريس للحاق بوالدتهن . وحصلت أحداهن على رسالة من راهبة كاثوليكية تستدر العطف على آل كالاس[٥٠] وفى ٧ مارس ١٧٦٣ أستقبل وزراء الملك الأم وبناتها . واجتمع الرأى على ضرورة نظر القضية من جديد . وصدر الأمر باحضار كل الوثائق والمستندات المتعلقة بالموضوع من تولوز .

ولكن قضاة تولوز لجأوا إلى مائة حيلة للابطاء فى جمع الوقائق واحالتها. وفى أثناء ذلك الصيف كتب فولتير ونشر بحثه الهام « رسالة عن التسامح » ورغبة منه فى إزدياد أقبال الناس عليها وأفتتانهم بها كتبها بأسلوب يتسم باعتدال يثير الدهشة والعجب . أنه أخفى أنه المؤلف ، وتحدث حديث رجل مسيحى تقى متمسك بالدين مؤمن بالخلود ، وامتدح أساقفة فرنسا على أنهم سادة مهذبون ويفكرون ويعملون بشكل نبيل يتناسب مع شرف محتدهم[٥١] .

وزعم أو تظاهر بأنه يرتضى المبدأ الذى يقول بأنه « لاخلاص بغير الكنيسة[٥٢]. ولم تكن الرسالة موجة إلى الفلاسفة بل إلى رجال الدين الكاثوليك أنفسهم ، ومع ذلك لم تخل من الجرأة والتهور لأنه كثيراً ما نسى قراءه .

وبدأ فولتير رسالته بالحديث عن محاكمة كالاس وإعدامه وعرض تاريخ التسامح وبالغ فى الكلام عنه فى حالة اليونان ورومه . واستبق جيبون فى محاولة إقامة الدليل على أن اضطهاد المسيحين للهراطقة فاق بمالا يقاس اضطهاد الرومان للمسيحين حيث كان الهراطقة « يشنقون أو يغرقون أو تحطم أجسامهم فى عجلة التعذيب أو يحرقون بسبب حب الله[٥٣] » ودافع عن الأصلاح الدينى باعتباره ثورة لها ما يبررها ضد بيع البابوية لصكوك الغفران ، وهى البابوية التى حط من قدرها حوادث غرام البابا الأسكندر السادس وحوادث القتل التى أرتكبها قيصر بورجيا ابن البابا . وأبدى دهشته وشدة أستيائه عندما اطلع على محاولة حديثة لتبرير مذبحة سانت برثلميو(*) وسلم بأن البروتستانت كانوا كذلك غير متسامحين(**) وعلى الرغم من ذلك أوصى باباحة العبادة البروتستانتية فى فرنسا وعودة الهيجونوت المنفيين إليها.

« أنهم لا يطلبون الا حماية القانون الطبيعى لهم ، وإقرار صحة زواجهم ، والأطمئنان على أحوال أبنائهم وحقهم فى الوراثة عن آبائهم ، وتحرير

(*) كان هذا فى « اعتذار لويس الرابع عشر » ١٧٦٢ بقلم القسيس كافيراك وقد استنكر كثير من رجال الدين الكاثوليك هذا الكتاب[٥٤] .

(**) وبما كان الوعاظ اللوثريون والكلفنيون قليلى الإتجاه إلى الشفقه والرحمة قساه القلوب غير متسامحين كذلك حين ينتقدون مخالفيهم بقسوة . إن القانون الوحشى الذى يحظر على أى كاثوليكى رومانى الإقامة فى بلاد معينة لأكثر من ثلاثة أيام لم يبلغ بعد — رسالة عن التسامح المطلق فى أعمال فولتير ٢١ أ ص ٢٥٧ أنظر شجب فولتير لقانون الهيجونوت المتعصب البعيد عن التسامح فى مقالة « داود » فى القاموس الفلسفى .

أشخاصهم ، ولا يطالبون بكنائس عامة ولا بأى حق فى الوظائف البلدية ولا فى المناصب الرفيعة[٥٥] .

وعلى الرغم من هذا التحديد البارع عرف فولتير التسامح بقوله :

« هل لى إذن أن اقترح أن يكون كل إنسان حراً فى أتباع ما يمليه عليه عقله هو ، ويؤمن بما يوحى به إليه عقله المستنير أو المخدوع أيا كان ؟ وحقا شريطة إلا يعكر صفو النظام العام . . . وإذا كنت تصر على القول بأن عدم الإيمان بالديانة السائدة جريمة فانك بذلك تتهم المسيحين الاولين وأباءك الا قدمين وتبرر عمل من تلومهم على أضطهادهم وتعذيبهم . . . . وإذا كان ينبغى أن يكون للحكومة الحق فى معاقبة الناس على أخطائهم فمن الضرورى أن تتخذ هذه الأخطاء شكل الجرائم . ولن تتخذ الأخطاء شكل الجرائم إلا إذا ازعجت المجتمع وعكرت صفوه . وهى تقلق بال المجتمع إذا ولدت التعصب . ومن ثم يجدر بالناس أن يتفادوا التعصب ليكونوا جديرين بالتسامح »[٥٦] .

وختم فولتير حديثه بالتوجه إلى الإله « أنك لم تخلق لنا القلوب ليكره بعضنا بعضا ، ولا الأيدى ليقتل الواحد منا الآخر . فلنسلم بأن الواحد منا قد يعين الأخر على احتمال عبء الحياة المؤلمة الزائلة . نرجو الايستخدم الناس هذه الفروق الطفيفة فى الملابس التى تستر أجسامنا الضعيفة ، وفى الطرق التى نعبر بها عن أفكارنا وفى عادا تنا السخيفه وقوانيننا القاصرة . . . وباختصار هذه الاختلافات اليسيرة الموجودة بين الذرات المسماة بالناس . . . تقول نرجو إلا يستخدمها الناس علامات على الكراهية والاضطهاد المتبادلين ونرجو أن يتذكر الناس جميعا أنهم أخوة[٥٧] .

ولسنا ندرى أى نصيب أسهم به هـــذا النداء فى مرسوم التسامح الذى أصدره لويس السادس عشر فى ١٧٨٧ . وهل وصل إلى أسماع وزراء لويس الخامس عشر وحرك مشاعرهم . وعلى أية حال وبعد معوقات جمة

امتحن الله بها قلوب آل كالاس أعلن مجلس الملك فى ٩ مارس ١٧٦٥ أن أتهام جان كالاس بأطل ونطق ببراءته وحصل شوازيل من الملك على منحه قدرها ثلاثون ألفا من الجنيهات تعويضا للأرملة وأبنائها عن فقدممتلكاتهم. ولما وصلت أنباء هذا الحكم إلى فرنى بكى فولتير فرحا .

وفى الوقت نفسه (١٩ مارس ١٧٦٤) أمرت المحكمة البلدية فى Mazamet فى جنوب وسط فرنسا بأعدام بيير بول سيرفن Sirven وزوجته بتهمة قتل أبنتهما البزابث للحيلولة بينها وبين التحول إلى الكاثوليكية . وقضى الحكم بأن تشهد البنتان الباقيتان على قيد الحياة إعدام والديهما[٥٨] وكان ينبغى أن يتم هذا الاجراء بصورة رمزية لأن الأسرة كانت قد هربت إلى جنيف (١ إبريل) وكانت قد أبلغت فولتير بقصتها .

وكان سيرفن بروتستانتيا يقيم فى كاستر Castre على بعد نحو أربعين ميلا إلى الشرق من تولوز . وفى ٦ مارس ١٧٦٠ اختفت الأبنة الصغرى البزابث وعبثا حاول والداها البحث عنها . واستدعاهما أسقف كاستر وأبلغهما أنه كان قد أرسل الفتاة إلى أحد الأديار ، بعد أن أفضت إليه برغبتها فى أن تصبح كاثوليكية . وسمح القانون الفرنسى الذى سن فى عهد لويس الرابع عشر للسلطات الكاثوليكية بانتزاع الولد فوق سن السابعة من بين أحضان والديه ، ولو بالقوة عند الاقتضاء ، إذا طلب التحول إلى المذهب الكاثوليكى . وأستبدت الأوهام بالبزابث فى الدير وتحدثت إلى الملائكة ومزقت ملابسها عن جسمها وتوسلت أن تضرب بالسياط . وبأتت الراهبات فى حيرة من أمر البزابث ، وكيف يتصرفن معها ، فابلغن الأسقف بخبرها ، فأمر باعادتها إلى والديها .

وفى يولية ١٧٦١ أنتقلت الأسرة إلى سانت آبى St.Abby على بعد ٥٠ ميلا من كاستر . وهناك فى أحدى ليالى ديسمبر غادرت البزابث غرفتها — ولم تعد . وفى ٣ يناير وجد جثمانها فى بئر . ولم يكن أهالى سأنت آبى ميالين إلى أتهام أسرة سيرفن بقتلها ومثل ٤٥ شاهدا أمام المحكمة المحلية . فعبروا

جميعا بلا أستثناء عن رأيهم فى أن الفتاة إنتحرت أو أنها سقطت فى البئر بمحض الصدفة . وأرسل المدعى المحلى ترنكييه Trinquier مذكرة بالحادث إلى المدعى العام فى تولوز فأصدر إليه تعليماته بمواصلة السير فى القضية مع إفتراض أن سيرفن مذنب : وبدا هذا غير جائز لأن سيرفن كان متغيبا عن البلدة ليلة اختفاء اليزابث . كما كانت زوجته عجوزا واهنة . وكانت أحدى البنات حبلى . وكاد يكون من غير المعقول أن تكون أحدى هاتيك السيدات قد دفعت بالبنت إلى البئر دون أن يسمع لها صراخ . ومع ذلك فأن ترنكييه أصدر فى ٢٠ يناير أمرا بالقبض على سيرفن .

وعلم سيرفن أنه قبل ذلك بنحو شهرين كانت محكمة تولوز قد أصدرت حكما بأعدام جان كالاس بتهمة مماثلة بناء على: أدلة مشتبه فيها غير قاطعة . وإذا أستسلم للأعتقال والتحقيق والمحاكمة فإن قضيته ستعرض فى النهاية على برلمان تولوز ، ولما لم يكن يثق فى هذه المحاكم فأنه حمل زوجته وبناتة فى أو اسط الشتاء عبر فرنسا وفوق جبال السفن Sevennes إلى جنيف على أمل أن يهب المدافع عن كالاس لمعاونته .

وكان فولتير لايزال منهمكا فى حملته من أجل كالاس فرأى من سداد الرأى ألا يشغل الذهن الفرنسى بقضيتين فى وقت معاً . وأسهم فى الأخذ بيد الأسرة التى كانت أملاكها قد صودرت ، ولكن عندما أقحمتها سلطات تولوز فى الموضوع استجابة لطلب وثائق مستندات قضية كالاس ، استأنفه فولتير الهجوم بالبدء فى شن حملة من أجل سيرفن ، وعاود الكرة فى طلب المعونة والتبرعات التى جاءته من فرد ريك الثانى ملك بروسيا وكريستيان السابع ملك الدنمرك وكترين الثانية قيصرة روسيا وستانسلاس بونيا توسكى ملك بولندة . ورفضت محكمة مازامى طلب نسخة من أوراق التحقيق .

ويجدر بنا ألا نسهب فى إيراد تفاصيل الصراع فى هذه القضية فقد ظلت منظورة حتى نقض برلمان تولوز آخر الأمر فى ١٧٧١ حكم محكمة أول

درجة و قضى ببراءة أسرة سيرفن وأعاد إليها أملاكها . وقال فولتير :

« لقد استغرق صدور الحكم باعدام هذا الرجل ساعتين واستغرق النطق ببراءته تسع سنوات(٥٩) .

وروع فولتير حين علم وسط هذا الجهد الكبير والشغل الشاغل أنه هو نفسه متورط فى قضية برزت فجأة فى آبفيل على شاطىء المانش . ذلك أنه فى ليلة ٨ — ٩ أغسطس شوه صليب خشبي (تمثال يمثل المسيح مصلوباً) على جسر بونت نيف على نهر السوم كما لطخ صليب آخر فى مقبرة سانت كاترين بالأوساخ والأقذار . وفزع رجال الدين والأهالى حين ما اكتشفوا تدنيس المقدسات على هذا النحو وقصد أسقف أميان إلى آبفيل وقاد وهو حافى القدمين موكباً اشترك فيه كل السكان تقريباً يلتمسون المغفرة من الرب . وقرىء فى كل الكنائس تحذير ينذر بتوقيع العقوبة الصارمة على كل من كان فى مقدوره أن يلقى شيئاً من الضوء على هذا السر ولم يتقدم الأدلاء بما يعلم . واستمع القاضى دوفال إلى ٧٧ شاهداً وذكر بعضهم أنهم لاحظوا ثلاثة شبان يمرون بموكب عيد الجسد دون أن يركعوا أو يخلعوا قبعاتهم . وزعم آخرون إن عصابة من شبان آبفيل ، من بينهم ابن دوفال ، درجوا على السخرية من المواكب والاحتفالات الدينية والتغنى بأغان ماجنة(٦٠) . وفى ٢٦ أغسطس صدرت مذكرات إلى جيار أتاللوند وشيفالييه جان فرنسوا ليفبر دى لابار وإلى شاب فى السابعة عشرة يعرفه التاريخ باسم موازنل فقط . وهرب أتاللوند إلى بروسيا . وقبض على موازنل Moisnel ودى لابار . وحصل موازنل على عفو جزئى باعترافه بأنه هو والآخرون ارتكبوا هذه الأعمال المزعومة . واتهم دى لابار بأنه بصق على صور القديسين وبأنه أنشد ابتهالا بذيئاً اسمه «لا مادلين » وبأنه أعاره القاموس الفلسفى « ورسالة إلى فراشه لفولتير ، وزعم أنه رأى أتاللوند يضرب الصليب فوق القنطرة ويلطخ الصليب بالأقذار فى المقبرة .

وكان لابار حفيد قائد أخنى عليه الدهر واعترف بأنه مهرطق . وروى أحد الشهود أن لابار عندما سئل لماذا لم يخلع قبعته أمام موكب عيد القربان أجاب بأنه « اعتبر القربان قطعة من الشمع ولم يستطع أن يفهم كيف يقدم أى إنسان على عبادة إله من العجين . وأقر لابار بأنه ربما قال شيئاً من هذا القبيل وأضاف إنه كان قد سمع شباناً آخرين يبدون شيئاً من مثل هذه المشاعر والآراء وإنه لاضير عليه من مثلها . كذلك وفتشت مكتبته فوجد فيها قاموس فولتير وكتاب هلفشيوس « الذكاء وكتب أخرى تهاجم الدين وفى أول الأمر نفى علمه بانتهاك أتاللوند للحرمات المقدسة فلما علم باعتراف موازنل بذلك عاد فأكد صحته . وكانت الجريمة النهائية التى اتهم بها دى لابار هى التجديف على الله والقربان المقدس والعذراء المقدسة والدين والوصايا الالهية وتعاليم الكنيسة والتغنى بأغنيتين مملوئتين بالتجديف اللعين البغيض ووضع علامات التقديس والاجلال على بعض الكتب السيئة السمعة وانتهاك حرمة علامة الصليب وسر تقديس النبيذ والبركات التى تمنحها الكنانسة والتى يقرها المسيحيون(٦١) .

وفى ٢٨ فبرأير ١٨٦٦ أصـــدرت محكمة آبفيل حكمها . وهو يقضى بتعذيب لابار واتا للوند عند اعتقالهما حتى يبوحا بأسماء شركائهما . كما يقضى عليهما بالتكفير علناً أمام الكنيسة الرئيسية فى المدينة ويقطع لسانيهما من الجذور وضرب عنقيهما ثم إحراق جثتيهما حتى تصيرا رمادا . كما يجب إلقاء قاموس فولتير الفلسفى فى نفس النار . واستؤنف الحكم أمام برلمان باريس . وطالب بعض الأعضاء بتخفيفة . فرد العضو باسكييه بأن الأمر يحتاج إلى إنذار وعقوبة رادعة لاستئصال شأفة الكفر الذى يهدد الاستقرار الاجتماعى والأخلاقى ، وحاول التدليل على أن المجرم الحقيقى هو فولتير ، ولكن حيث أنه لاسبيل أمام البرلمان للوصول إلى أس البلاء فيجب أن ينال تلميذه جزاءه بدلا منه . وصوت عضوان على إبدال الحكم وتخفيفه وصوت خمسة عشر عضوا على تنفيذه برمته . وفى أول يولية ١٧٦٦ نفذ

الحكم باستثناء قطع اللسان . ولقى لابار مصيره دون توريط أحد من أصدقائه . وفصل الجلاد الرأس عن الجسد بضربه مسددة تسديداً محكما مما نال إعجاب الجمهو واستحسانه(٦٢).

وصعق فونتير لصرامه العقوبة وأحس بأنها وحشية خليقة بمحكمة التفتيش الإسبانية فى أسوأ أحوالها ، وكتب أسقف أنسى Anncey إلى المحكمة الفرنسية يطلب تطبيق العقوبات الواردة فى إلغاء مرسوم نانت على يد فولتير الذى كتب إلى دالمبير يقول إن هذا الأسقف الوغد لايزال يقسم أنه سيرانى أحرق فى هذه الدار الدنيا أو فى الدار الآخرة . . . وتجنباً للاحتراق فانى أرقد فى مقدار من الماء المقدس(٦٣). وخشية إستدعائه للمثول أمام برلمان ديجون إنتهز الفرصة لتجربة المياه المعدنية فى رول بسويسرا . ثم عاد إلى فرنى ليستأنف جهوده من أجل سيرفن .

واقترح آنذاك على دالمبير وديدرو أن يبرحا هم وسائر الفلاسفة فرنسا تحت جنح الليل : ويقيموا فى كليفز تحت حماية فردريك الأكبر . ولم يتحمسا كما لم يتحمس فرديك لهذه الخطة . وأقر الملك بأن عقوبة دى لابار كانت متطرفة فى صرامتها أما هو فكان يرى من جانبه الحكم على الشاب بقراءة « خلاصة اللاهوت » لتوماس أكويناس ، فهذا فى نظره مصير أسوا من الموت ، ثم استطرد فردريك ليزود فولتير بشىء من النصيحة :

« أن ما حدث فى آبفيل كان مأساة ولكن ألم يخطىء أولئك الذين عوقبوا ؟ هل لنا أن نهاجم مباشرة الحزازات والاحقاد التى غرسها الزمن فى أذهان الأمم ؟ وهل يجوز لنا إذا إردنا أن ننعم بحرية الفكر أن نحقر الديانة السائدة . أن الإنسان الذى لا يهدف إلى تعكير الصفو وأثارة القلق نادراً ما يضطهد . وتذكر قول فونتنل « إذا كانت يدى مملوءة بالحقائق فينبغى على أن أفكر أكثر من مرة قبل أن أفتحها (٦٤) .

أما فيما يتعلق بمستعمرة الفلاسفة المقترحة فى كليفز فإن فردريك عرض أن يبسط عليهم حمايته شريطة أن يحافظوا على السلام ويحترموا عقيدةالشعب.

وأضاف « أن الرجل المتوسط لاينبغى له أن يتنور . . . وإذا كان للفلاسفة أن يشكلوا حكومة فان الناس بعد ١٥٠ عاماً سيصطنعون خرافات جديدة، فيصلون لأصنام صغيرة أو للأجداث التى دفنت فيها رفات عظماء الرجال، أو يتضرعون إلى الشمس أويعمدون إلى شىء من مثل هذا الهراء . إن الخرافة موطن ضعف فى ذهن الإنسان وجزء لايتجزأ منه ولا ينفصل عنه، إن هذا الضعف كان موجوداً وسيظل موجوداً دائماً (٦٥)

وتابع فولتير حملته وأخرج « موجز عن موت شيفاليه دى لابار . وأرسل إلى أصدقائه الملكيين يطلب إليهم التوسط لدى لويس الخامس عشر ليرد إلى الشاب الميت اعتباره بشكل أو بآخره . ولما أخفقت هذه المساعى أرسل إلى لويس السادس عشر (١٧٧٥) رسالة عنوانها « صرخة الدم البرىء» . ولم ينقض الحكم على لابارقط ولكن رضيت نفس فولتير حين رأى ترجو يعيد النظر فى قانون العقوبات الذى أجاز إعدام شاب نتيجة أخطاء يبدو أنها تستحق عقوبة أقل من ضرب العنق . وتابع فولتير بنشاط يستحق التنويه به فى مثل سنه ، قيادة هذه الحملة الصليبية حتى آخر حياته ضد أفراط الكنيسة والدولة .

وفى ١٧٦٤ ظفر بإطلاق سراح كلود شومونت الذى كان قد حكم عليه بالتجديف فى السفن الشراعية لحضوره صلاة بروتستانية . ولما أطاحوا برأس كونت توماس دى لالى (١٧٦٦ فى باريس) القائد الفرنسى الذى هزم أمام الإنجليز فى الهند بتهمة الخيانة والجبن فإن فولتير تلبية لنداء ابن لالى، كتب مجلداً من ٣٠٠ صحيفة تحت عنوان شذرات تاريخية عن الهند يبرىء فيه الكونت ، واستحث مدام دى بارى للتوسط لدى لويس الخامس عشر وألغى الحكم ١٧٧٨ قبل وفاة فولتير بزمن قصير .

إن هذه الجهود الشاقة أرهقت المناضل الذى بلغ الثمانين ، ولكنها جعلت منه بطل فرنسا المتحررة . وأورد ديدرو فى كتابه (ابن أخى رامو) أن فولتير بلغ الذروة فى كتابه محمد ، ولكنى كنت أفضل أن أدافع عن كالاس .(٦٦)

وقال بوماريه وهو قسيس بروتستانتي في جنيف لفولتير — يبدو كأنك تهاجم المسيحية ولكنك تؤدي عمل الرجل المسيحي[٦٧] وأسهم فردريك على — الرغم من كل حرصه وحذره في تقدير وإجلال الرجل الذي جعل من نفسه « ضمير أوربا » ، حيث يقول » كم هو جميل أن يسمع فيلسوف صوته لكل الناس من ميكنه . وأن يجبر الجنس البشري الذي يتكلم هذا الفيلسوف باسمه القضاة على إعادة النظر في الأحكام الجائرة وإذا لم يكن ثمة شيء آخر يتحدث بفضل فولتير ، فإن هذا وحده كاف ليحظى بمكان بين من أحسنوا إلى الجنس البشري وأدواله أجل الخدمات[٦٨]

٦ — أقضوا على الرجس

في غمرة هذا الصراع انقلبت مناهضة فولتير للمسيحية إلى بغض استمر عشر سنين من حياته (١٧٥٩ — ١٧٦٩) وكان قد بدأ باحتقار شبابي للمعجزات والأسرار والأساطير التي واجهت الناس ، ثم انتقل إلى تشكك ساخر في المبادىء المسيحية مثل التثليث وتجسد المسيح (اتحاد الألوهية والناسوتية فيه) وآلام المسيح وموته (تكفيراً عن خطايا البشر) ، عما اعترف توماس أكويناس صراحة بأنه ليس في متناول العقل ، أو أنه يشق على الفهم . ولكن حالات التمرد والثورة هذه طبيعية في ذهن نشيط يحس بالنمو يسري في العروق وربما مر فولتير بهذه الحالات حتى أصبح رجلا يتغاضى كما يتغاضى العالم تغاضياً لطيفاً عن المعتقدات العزيزة على جماهير الناس المفيدة بوصفها عاملا مساعداً على النظام الاجتماعي والانضباط الخلقي . وفي النصف الأول من القرن الثامن عشر كان رجال الدين الفرنسيون متسامحين نسبيا ، وأسهموا في تقدم الاستنارة ولكن اتساع نطاق الكفر والترحيب الذي قوبلت به دائرة المعارف أزعجا رجال الكنيسة وانتهزوا فرصة ما داخل الملك من رعب بمحاولة دامين Damiens قتله (١٧٥٧) ليخرجوا من الدولة بمرسوم (١٧٥٩) ينص على أن مهاجمة الكنيسة جريمة عقوبتها الإعدام . ورأى الفلاسفة في هذا إعلانا للحرب ، واحسوا بأنهم ليسوا منذ الآن في حاجة إلى أن يدخروا أية مشاعر أو أية تقاليد في شن الهجوم على ما بدا لهم أنه حماقة

قاتلة . ورأوا خلف جمال الديانة وشعرها دعاية تسخر الفن وتصادره ، وخلف مساندة المسيحية للفضيلة والأخلاق القويمة ألف مهرطق يحرقون وهم مشدودون إلى الخازوق ، كما رأوا أهل مدينة ألبي Albi (فى جنوب فرنسا) يسحقون فى حرب صليبية طاحنة ، ورأو أسبانيا والبرتغال تجللهما الكآبة والقتام بسبب محاكم التفتيش ، وفرنسا ممزقة منعزلة بما فيها من أساطير متنافسة ، ورأوا مستقبل الروح البشرية فى كل مكان خاضعاً للتجديد أو البعث المتكرر للخرافه ولأساليب الكهنة والاضطهاد والتعذيب ، وعليهم أن يكافحوا نكسة العصور الوسطى هذه فى أواخر سنى حياتهم .

وثمة ثلاثة أحداث جعلت من عام ١٧٦٢ نقطة تحول فى هذا الصراع المتعذر كبح جماحه . فبدا اعدام كالاس فى مارس وكأنه إعلان عن انتكاس فرنسا إلى العصور الوسطى ومحاكم التفتيش . إن السلطة المدنية هى التى تولت المحاكمة والتعذيب والقتل ، ولكن وراء خلفية من تعصب شعبي عام ولدته التعاليم والطقوس والكراهية الدينية . وفى مايو زود كتاب روسو « اميل القرن الثامن عشر » بإعلان قسيس سافوى لعقيدة الإيمان ، وهو ولو أن مؤلفه خصيم للفلاسفة جرد المسيحية من كل شىء تقريبا فيما عدا الإيمان بالله وبأخلاق المسيح . وبدا أن احراق الكتاب فى ١١ يونية فى باريس و ١٩ يونية فى جنيف وحد بين الكاثوليكية والكلفنية فى مؤامرة ضد العقل البشرى . وكان واضحا أن استنكار برلمان باريس لليسوعيين فى أغسطس نصر للفلاسفة ، كما كان أيضاً نصرا للجانسنيين الذين سيطروا على برلمانات باريس وتولوز وروان ، وإن تصرفات البرلمانات فى قضيتى كالاس ولا بار لتوضح أن الجانسنيين كانوا أعداء ألداء لحرية الفكر ، قدر عداوة غيرهم فى تاريخ فرنسا بأسره . وفى نفس الوقت نجد أن العداء بين البرلمانات والحاشية الملكية ونمو سلطان شوازيل فى الحكومة (١٧٥٨ — ١٧٧٠) . وهو من مشايعى فولتير — مهدا للفلاسفة الفرصة للمضى فى النضال مع التعرض لخطر أقل مما هو مألوف من جانب رقباء الدولة والشرطة ، ومن ثم أعدت الساحة لذروة الهجوم على المسيحية .

والآن يطلق فولتير النذير ويصيح بأعلى صوته غاضبا فى « إقضوا على الرجس » . وكان قد بدأ باستخدام هذه العبارة فى ١٧٥٩ ، واستخدمها منذ تلك اللحظة مئة مرة فى عدة صيغ مختلفة ، كما استخدمها أحياناً بمثابة توقيع [٦٩] . لقد اكتسب فولتير ابن الثمانية والستين عاما حيوية جديدة ونشاطا جديدا حين شبه نفسه بكاتو سنكس القنصل حين ختم خطابه أمام مجلس السناتو الرومانى بصيحته « حذار من قرطاجه » وكتب فولتير يقول « إنى مصاب بالمغص ، وأنا أعانى كثيرا ، ولكن تخف آلامى حين أهاجم الخزى والعار » [٧٠] . وفى حماسة شابة وثقة بالغة المدى نصب نفسه ونفرا من المعاونين المترددين لشن الحملة على أقوى نظام فى تاريخ البشرية .

وماذا كان يقصد بالرجس؟ هل كان يريد القضاء على الخرافة والتعصب والظلامية (النزعه إلى تعويق التقدم وانتشار المعرفة) والاضطهاد ؟ أو أنه أخذ على عاتقه هدم الكنيسة الكاثوليكية ، أو كل مذاهب المسيحية ، أو الدين أى دين ؟ أغلب الظن ألا يكون هذا الأخير لأننا نراه مرة بعد أخرى وسط الحملة يعلن إيمانه بالتوحيد ، وفى بعض الأحيان فى لغة عامرة يتقوى فولتير . وفى القاموس الفلسفى عرف الديانة بطريق غير مباشر بقوله « إن كل شيء تقريبايتجاوز حدود عبادة كائن أسمى وإخضاع القلب لأوامره الأبدية هو خرافة [٧١] وقد يبدو أن هذا يرفض كل أشكال المسيحية فيما عدا مذهب الموحدين . إن فولتير نبذ تقريباً كل المبادىء المميزة فى المسيحية التقليدية — الخطيئة الأولى ، التثليث ، التجسد ، تكفير المسيح عن خطايا البشر ، والقربان ، وسفه « التضحية » من الله على الصليب أو من الكاهن فى القداس ، ومن ثم نبذ معظم أشكال البروتستانتية أيضا ، واعتبر الكلفنية عائقا فى سبيل التقدم ونشر المعرفة ، مثل الكاثوليكية . وصعق كهنة جنيف حين قال بأن كلفن مراوغ فظيع » ورأى أن فى مقدوره أن يعيش راضيا قانعاً فى ظل الكنيسة الرسمية كما كان قد رآها فى انجلترا . وكتب إلى دالمبير : « آمل أن تقضى على الرجس ، تلك هى النقطة الهامة . ويجدر أن نهبط بها

إلى ما هى عليه فى إنجلترا . وستصل إلى هذه الغاية إذا أردت ، أو تلك هى أجل خدمة يمكن أن تؤديها للجنس البشرى » (٧٢) وقد نخلص من هذا إلى أنه قصد بالرجس الدين عامة، بل الدين الذى قصد به نشر الخرافة والأساطير والتحكم فى التعليم والسيطرة عليه ، ومناهضة الانتقاض على الرقابة ، والأعتراض على الاضطهاد . وتلك هى المسيحية التى رآها فولتير فى التاريخ وفى فرنسا .

وهكذا أحرق كل الجسور من خلفه ، ودعا كل أفراد عصبته للحرب. « وكان المطلوب لدك الحصون خمسة أو ستة من الفلاسفة يفهم الواحد منهم الآخر ... لقد غرس دالمبير وديدرو وآل بولينجاروك وهيوم وأمثالهم بذور الحقيقة » (٧٣) ولكن بشكل مشتت تعوزه الخطة المتماسكة ، وعليهم الآن أن يتحدوا ، وسيكون هو على رأسهم ، وتلك قضية يسلم هو بها ، ويشير عليهم بخطة العمل فيقول : « اضرب وأخف يدك ... إنى آمل أن يستطيع كل من الإخوة أن يسدد بعض السهام إلى هذا المسخ دون أن يعلم أية يد صوبتها إليه (٧٤) إنى لأرجو أن يتسلل الإخوان إلى الأكاديميات ومراكز النفوذ وإلى الوزارة إذا أمكن ، إنهم ليسوا فى حاجة إلى تحويل الجماهير بل إلى تحويل الرجال ذوى السلطة الذين يمكنهم أن يأخذوا بزمام المبادرة . إن بطرس الأكبر غير روح روسيا ووجهها » .وكذلك حاول فولتير إدخال فردريك فى هذه الزمرة (٥ يناير ١٧٦٧) « مولاى إنك على حق تماما أن الأمير القوى الشجاع يستطيع بالمال والجنود والقوانين أن يحكم الناس دون عون من الدين الذى ما أقيم إلا ليضللهم ويخدعهم . إن جلالتكم تؤدون إلى الجنس البشرى أجل خدمة خالدة باقتلاع جذور هذه الخرافة المخزية ، ولا أقول من الرعاع غير الجدير بن بالتنوير ، الذين يتبعون أول ناعق ، وهم أهل للخضوع لأى سلطان ، ولكن أقول بين الناس المخلصين الأمناء ، بين الذين يفكرون والذين يريدون أن يعملوا فكرهم ..

وعليك أن تختبر عقولهم .. ولست آسف على شيء حين تدهمنى المنون إلا على أنى لن أتمكن من معاونتك فى هذه المهمة النبيلة »[٧٥] .

وسخر فردريك من سذاجة هذا الشيخ الهرم ، ولكن فولتير أصروثابر ، مما كان له كما سنرى فيما بعد ، بعض الأثر على وزراء فرنسا والبرتغال وأسبانيا .

ورحب بأهوان أقل شأنا وكتب نصائح رسولية إلى بورد فى ليون ، وسرفان فى جرينوبل ، وبيير روسو فى بويون ، وأود بير فى مرسيليا ، وريبوت فى مونتوبان ، ومركيز دار جنس فى شارنت ، وإلى الراهب أودرا فى تولوز . وأطلق على هؤلاء جميعا وغيرهم اسم « الإخوة » ، وأرسل إليهم بالمسادة والنداءات يستحثهم ويحفزهم حتى لا يغلب عليهم النعاس : « شنوا الحرب أيها الإخوة جميعا ببراعة على الرجس . إن كل ما يهمنى هو نشر الإيمان والحقيقة والنهوض بالفلسفة ، والقضاء عن الخزى والعار . اشربوا معى نخب أفلاطون (ديدرو) وامحوا الرجس . إنى أعانقكم أيها الإخوة جميعا .. إن صحتى تدعو إلى الإشفاق .. امحوا الرجس . إنى أحتضن اخوتى فى كنفوشيوس .. فى لوكر يشس ، فى شيشرون ، فى سقراط ، فى ماركوس أوربليوس ، فى جوليان ، وفى شيوخنا الإجلاء جميعا . إنى أمنح بركتى للإخوة جميعا . صلوا وارقبوا أيها الإخوة ، اقضوا على الرجس »[٧٦] .

وباتت الكتب الآن أسلحة وبات الأدب حربا . ولم تقتصر الأمور على دخول ديدرو ودالمبير وهلفشيوس ورينال وموريلليه وكثير وغيرهم بأقلامهم فى المعركة . ولكن فولتير الذى كان يحتضر دائما أصبح مستودعا حقيقيا للقذائف ضد رجال الدين ، وأخرج على مدى عشر سنين نحو ثلاثين كتيبا . ولم يكن يؤمن بفعالية المجلدات الضخمة فهو يقول : « أى أذى ينجم عن كتاب (الموسوعة مثلا) يكلف مائة كروان .. إن عشرين مجلدا من القطع الكبير لن يفجروا ثورة أبدا . إنها المجلدات الصغيرة السهلة الحمل القليلة

الثمن (من ذات الثلاثين سو) هى التى يخشى جانبها . ولو كان الأنجيل غالى الثمن (ثمنه ١٢٠٠ سسترس عملة رومانية قديمة) لما قامت الديانة المسيحية(٧٧) .

ومن ثم لم يخرج مجرد تواريخ وروايات ، بل نشرات وحكايات وعظات وتوجيهات وتعاليم دينية مفرغة فى قالب أسئلة وأجوبة ، وخطبا لأذعة ومحاورات ورسائل ونقدا موجزا للكتاب المقدس وتاريخ الكنيسة ، مما يسهل تداوله وانتشاره ويصيب الرجس بجراح ، وكان فردريك قد كتب إليه منذ زمن طويل :

« أنى لأتصور أنه فى مكان ما فى فرنسا نخبة منتقاة من ذوى العبقرية الرفيعة المتساوية ، ممن يكتبون معا وينشرون كتاباتهم تحت أسم فولتير . . . فإذا كان هذا الأفتراض صحيحاً فلسوف أصبح مؤمنا بالتثليث وابدأ فى رؤية ضوء النهار فى هـذا السر الذى آمن به المسيحيون حتى الأن دون أن يفهموه(٧٨) .

ولكن فولتير لم يكن يكتب الآن تحت أسم فولتير ، بل استخدم أكثر من مائة من مختلف الأسماء المستعارة ، بل أحيانا ، فى مرح شيطانى ، نسب هجماته العنيفة إلى رئيس أساقفة كنتربرى ، أو رئيس أساقفة باريس ، أو إلى قسيس أو كاهن أو راهب ، ورغبة فى أبعاد كلاب السماء عن طريقه خص نفسه بأحدى قذائفه . وكان يعرف أصحاب مطابع باريس وأمستردام ولأهاى ولندن وبرلين ، فاستخدمهم فى حملته . وعن طريق داملافيل وغيره ، وكان يزود باعة الكتب مجانا بهذه النشرات ، وكانوا يبيعونها بأثمان رخيصة . وهم بذلك يغامرون . وأشتد العود ونما الغرس .

ونشر آنذاك فى ١٧٦٢ « عظة الخمسين » التى كان قد الفها قبل ذلك بعشر سنين على الأقل ، وقرأها على فردريك الأكبر فى بوتسدام ، وكانت أول هجوم مباشر على المسيحية . وبدأت بداية بريئة كل البراءة : « اجتمع كل يوم أحد فى مدينة تجارية آهلة بالسكان ، خمسون شخصا متعلما تقيا

متعقلا (الكويكرز فى لندن) فأدوا الصلاه وألقى أحدهم بحثا ؛ ثم تناولوا طعامهم ، وأخذوا قدرا منه للفقراء ، وتناوب كل منهم الرياسة ، وأم الصلوات » وألقى الموعظة وهذه هى أحدى الصلوات وأحدى العظات :

« يا إلهنا ، يارب السموات ورب النجوم ، احفظنا بمنأى عن الخرافة . وإذا أسأنا إليك بتضحيات لا تليق بك فامح اللهم هذه الأسرار المخزية ، وإذا إنتقصنا من قدرك بهذه الخرافات الحمقاء ، فلتهلك الخرافات إلى الأبد . . . فليعش الناس ويموتوا فى عبادة إله واحد ، إله لم يكن ليولد أوليفنى (٧٩) » .

وحاولت العظة التدليل على أن الرب الذى ورد ذكره فى التوراة رب فخور حقود غضوب قاس قاتل ، لا يمكن لإنسان عاقل أن يعبده ، وأن داود كان وغدا منغمسا فى الشهوات سفاحا . فكيف يتسنى لأحد أن يصدق بأن هـــذا الكتاب تنزيل من عند الله ؟ وكيف تسنى أن يأتى من الأناجيل اللاهوت المسيحى الذى لايصدق ، والعمل الفذ السهل اليومى الذى يحول الرقاقة إلى جسد المسيح ودمه والبقايا التى لا تحصى ، وبيع الغفران والعداوات والبغضاء والحريق فى الحروب الدينية ؟

« لقد قيل لنا إن الناس بحاجة إلى الأسرار ومن الواجب خداعهم وتضليلهم . أيها الأخوة ، هل يجرؤ أحد على العدوان على الإنسانية بهذا الشكل ؟ ألم يخلص آباؤنا (المصلحون) الناس من إحالة الخبز والنبيذ إلى جسد المسيح ودمه ، ومن الأعتراف المهموس به ، ومن صكوك الغفران ، ومن الرقى والتعاويذ ومن المعجزات الزائفة والتماثيل السخيفة ؟ ألم يتعود الناس الآن الأستغناء عن هذه الخرافات ؟ يجب أن تكون لدينا الشجاعة لنخطو بعض خطوات أبعد من ذلك . فالناس ليسوا ضعاف العقول كما هو مظنون ، أنهم يستطيعون فى سهولة ويسر أن يقروا عبادة حكيمة بسيطه لاله واحد .... أننا لانعمل على سلب رجال الدين ما وفرلهم سخاء أتباعهم ، بل أن كل ما نريده — حيث أن معظمهم يسخرون من الأباطيل التى يعلمونها — هو أن ينضموا الينا فى التبشير بالحقيقة . . . . وأى خير عميم لا يحصى يمكن أن يتأتى بسبب هذا التغيير الميمون (٨٠) !

أن هذا يرهقنا اليوم كل الأرهاق ، ولكنه كان مادة ثورية فى فرنسا القرن الثامن عشر . فـــلا عجب إذن أن يصدره فولتير على زعم أن لامترى كان قد دبجه من قبل ، ولامترى فى عداد الأموات الآمنين .

وفى سنة ١٧٦٣ تحول المناضل إلى الدراما (المسرحيات) ، قصة قصيرة تافهة تحت عنوان « أبيض وأسود » ، وكتيب « أسئلة وأجوبة عن الرجل الأمين » يسرد فيه « ديانتة الطبيعية » ولكن عام ١٧٦٤ كان عاما بارزا ، فقد شغل فيه فولتير أصحاب المطابع « بأنجيل العقل » و « أختيار الديانة » (وهو طبيعة منقحة من كتاب جان مسلييه الملتهب) (العهد الجديد) ثم أحد أهم منشوراته وهو موجز القاموس الفلسفى (السهل الحمل) ولم يكن المجلد الضخم ذا الثمانمائة وأربع وعشرين صفحة ذات نهرين الموجود الآن ، أو الخمسة أو الثمانية مجلدات التى تملؤها « مجموعة أعماله » بل كان كتابا صغيراً يسهل الأمساك به أو أخفاؤه . إن إيجاز مقالاته وبساطة أساوبه ووضوحه ، كل أولئك جعله فى متناول مليون قارىء فى كثير من البلاد .

وهذا إنتاج ضخم جدير بالتنويه لرجل واحد . وربما كان به ألف من الأخطاء ، ولكن المادة التى جمعت فيه ، والمعلومات التى تناولت كل فروع المعرفة تقريباً ، جعلت الكتاب واحدة من المعجزات فى تاريخ الأدب . وأى جد ومثابرة وأى هذر وأى إصرار وعناد فى هذا الكتاب : أن فولتير منهمك فى القيل والقال ، أن لديه ما يقوله فى كل شىء تقريباً ، ولديه دائما شىء لايفقد أهميته وتشويقه أبدا تقريبا . وهنا كثير من العبث والتفاهة والسفاسف أو السطحية ، وهناك بعض ملاحظات حمقاء (إن عقل أوربا أحرز تقدما فى المائة سنة الأخيرة أكثر مما أحرز العالم كله من قبل منذ أيام براهما وزرادشت) [٨١] . ولكن لن يتسنى لأحد أن يلتزم جانب العقل والحكمة فى ألف صحيفة ، ولم يكن أى إنسان بارعا متألقا دائما وهو يكتب هذا القدر الكبير من الصفحات . أنه أورد فيه دراسة أصول الألفاظ وتاريخها ، لأن فولتير مثل كل قارىء محب للاستطلاع ، وكانت تجاذب

نظره المحن التى قاستها الألفاظ والكلمات فى ترحالها عبر الزمان . وهنا فى مقال « سوء استخدام الكلمات » ثم فى مقال « المعجزات » نجد قاعدة فولتير الشهيرة « حدد ألفاظك » .

وقصد بالكتاب أساساً أن يكون مصنعاً لإخراج الحجج ضد المسيحية كما عرفها فولتير ، وهنا نجد مرة أخرى الأشياء التى لا يمكن تصديقها فى الكتاب المقدس ومافيه منسخافات وحماقات ومخازلا فى مقال «المتناقضات» وحده ، بل فى كل صحيفة تقريبا . من خول الكنيسة سلطة الحكم بأن أربعة فقط من الخمسين انجيلا التى دونت فى القرن الذى تلا موت المسيح ، هى وحدها - أى الأناجيل الأربعة - معتمدة موحى بها من عند الله ؟ وأى سهو فاضح أن يتحدث الكتاب عن مولد المسيح من مريم العذراء ثم يتعقب نسبه إلى داود الوغد عن طريق يوسف المزعوم الحامل . ولماذا نبذت المسيحية شريعة موسى على الرغم من تكرار توكيد المسيح عليها ؟ وهل كان بولص الذى نبذ هذه الشريعة (من أجل قطعة صغيرة من الجلد) سلطة أو مرجعاً أقوى من المسيح ؟

ولم يرق القاموس الفلسفى للآباء الروحانيين فى مدينة جنيف . وفى ٢٤ سبتمبر ١٧٦٣ أمر مجلس الخمسة والعشرين النائب العام بأحراق أية نسخة يجدها منه . وفى ١٧٦٥ أصدر برلمان باريس أمراً شبيها بهذا ، وقد رأينا مصير الكتاب فى آبفيل (١٧٦٦) وأكد فولتير لسلطات جنيف أن القاموس من عمل مجموعة من الكتاب مجهولة تماماً لديه . وفى الوقت نفسه أعد مقالات إضافية لتلحق بالطبعات الأربع الأخرى التى طبعت سراً قبل نهاية ١٧٦٥ كما أدخل مادة جديدة إلى الطبعات الخمس الإضافية التى ظهرت قبل وفاته فى ١٧٧٨ . ورتب الأمور مع باعة كتب جنيف المتسترين ليمدهم مجاناً بأكبر عدد ممكن من النسخ يمكن توزيعه ، ومع الباعة على أن يتركوا نسخاً من هذا القاموس فى الدور الخاصة (٨٢) :

وتابع فولتير الحرب بلا هوادة فى ١٧٦٥ - ١٧٦٧ . وفى ١٧٦٤ كان

قد ترك نهائيا داره فى لى دليس فى مدينة جنيف التى باتت غير ملائمة لهرطقاته وضاقت بها ذرعا ، وكان لمدة نحو ثلاث سنوات لم يكد يبرح مكانه فى فرنى ، وكان فى كل شهر تقريبا يرسل إلى إحدى المطابع نشرة جديدة ضد « العار » وزعم كتيب Ouestions de zopata (مارس ١٧٦٧) أنه مجموعة أسئلة طرحها أمام لجنة من اللاهوتيين أستاذ اللاهوت فى جامعة سالامنكا فى ١٦٢٩ . وأعلن زاباتا عن شكوكه فى « نجم بيت لحم » وفى الإحصاء المزعوم « لكل الأرض » الذى أجراه أغسطس ، وفى قتل الأبرياء « وإغراء الشيطان ليسوع فوق جبل يستطيع الإنسان منه أن يرى كل ممالك الأرض . وأين كان يقع هذا التل العجيب ؟ ولم لم يف المسيح بوعده فى الحضور على متن سحابة فى قوة ومجد عظيم ، ليؤسس « مملكة الله » قبل أن ينقرض هذا الجيل ؟ [٨٣] ما لذى عوقه ؟ هل كان الضباب كثيفا إلى حد كبير ؟ [٨٤] ماذا أفعل مع أولئك الذين يتجرأون على الشك ؟ .. هل ألجأ من أجل تنويرهم وتهذيبهم ، إلى تعذيبهم العذاب العادى وغير العادى؟ أو ألا يكون من الأفضل أن أتجنب هذه المتاهات ، وأحض على الفضيلة ببساطة فقط ؟ [٨٥] والخاتمة .

« حيث أن زاباتا لم يتلق جوابا ، فإنه لجأ إلى التبشير بالله بكل بساطة. وأعلن إلى الناس أنه « أى الرب » هو والد الجميع ، وأنه هو الذى يثيب ويعاقب وهو الغفور . واستخلص الحقيقة من الأكاذيب ، وفصل الديانة عن التعصب .وعلم الفضيلة ومارسها ، وكان وديعا عطوفا متواضعا وأحرق فى بلد الوليد (فى أسبانيا) فى عام البركة ١٦٣١ [٨٦] » .

وفى مايو ١٧٦٧ عاد فولتير إلى الهجوم فى نشاط أكبر فى كتاب من مائة وخمسين صفحة « اختبار هام للورد بولنجبروك » . وهنا وضع حججه على لسان الرجل الإنجليزى المتوفى . ولكنه كان من المحتمل أن يرتضى بولنجبروك هذا العبء الثقيل . وفى نفس العام نشر فولتير « الساذج » ، وهى قصة لطيفة تقع فى مائة صفحة عن أمريكى فاضل بشكل لا يصدق

أحضروه إلى فرنسا من أمريكا، حيرته العادات الأوربية واللاهوت المسيحى. وفى ١٧٦٩ خرج كتيب « صيحة الأمم » وهو نداء إلى أوربا الكاثوليكية لتخلع نير سلطان البابوات المزعوم على الملوك والدول . وتابع الحملة فى نفس العام بكتاب جاد مدروس ولكنه مثير هو « تاريخ البرلمان » متهما هذه الهيئة بأنها مؤامرة من جانب الجانسنيين الرجعيين . وفى ١٧٧٠ — ١٧٧٢ أصدر تسعة مجلدات تحت عنوان أسئلة عن الموسوعة » وهى خليط من مقالات تشكل موسوعة رجل واحد . وهو أشد عداء للكاثوليكية وأقسى فى هجومه عليها من موجز القاموس الذى أسلفنا ذكره .

إن فولتير أخفى منشوراته عادة تحت أسماء أو عنوانات خداعة مضللة : « محاضرات فى تفسير العهد القديم ، رسالة إلى الرومان ، عظات الأب الجليل جاك روست ، محاضرات وعظات الكاهن بورن ، نصائح لأرباب الأسر . وساورت جمهور فرنسا المتعلم الظنون بأن فولتير هو المؤلف ، لأنه لم يكن يستطيع أن يخفى أسلوبه ، ولكن لم يثبت أحد ذلك ، وباتت هذه اللعبة المثيرة حديث باريس وجنيف ،وتردد صداها فى لندن وأمستردام وبراين : بل وفى فيينا ، ولم يحدث فى التاريخ أن لعب كاتب لعبة النمضية (أو الاختفاء) مع أعداء أقوياء مثل هؤلاء ، وبمثل هذا النجاح . وحاول مائة من الخصوم أن يردوا عليه ولكنه قارعهم الحجة بالحجة جميعاً ، وحارب فى قسوة ، وأحيانا فى خشونة وغلظة ، كما كان أحيانا مجحفا غير منصف ،وتلك هى الحرب . وكان مستمتعا فرحا بها، وحمى وطيس المعركة فنسى أن يموت .

والحق أن تفاؤلا غريبا غلب على فولتير ، الذى بدأ بعد « زلزال لشبونه » و « كانديد » وكأنه ينصح بالاستسلام لشرور الحياة التى لا سبيل لقهرها أو التغلب عليها ، وراوده حلم فلسفة منتصرة على كنيسة متغلغلة فى حاجيات الناس . وإذا كان اثنا عشر من صيادى السمك الأميين قد أقاموا المسيحية ، فلم لا يستطيع اثنا عشر فيلسوفا أن يقضوا على تعاليمها وعلى محاكم

التفتيش فيها . وكتب إلى أحد الإخوة « عش سعيدا واقض على الرجس » وأكد أنهم سيقضون عليه [٨٧] . ألم يكن إلى جانب ملك وامبراطورة وعشيقة ملكية وكثير من الشخصيات اللامعة ؟ أنه تملق الحاشية وتودد إليها علنا أو سرا بمهاجمة برلمان باريس ، ونعم بعطف مدام دى بمبادور ومدام دى بارى فيما بعد ، بل إنه كان يأمل فى إغضاء لويس الخامس عشر عنه . وكتب إلى دالمبير فى ١٧٦٧ « فلنبارك هذه الثورة السعيدة التى نشأت فى عقول كل المخلصين والأمناء من الرجال فى الخمسة عشر أو العشرين عاما الأخيرة ، إنها فاقت كل ما كنت أؤمل فيه) [٨٨] ألم يتنبأ بها ؟ ألم يكتب إلى هلفشيوس فى ١٧٦٠ (إن هذا القرن بدأ يشهد انتصار العقل) [٨٩] .

٧ — الدين والعقل

إن فولتير لم يكن من السذاجة بحيث يتصور أن الدين اخترعه القساوسة والكهنة ، بل على النقيض من ذلك كتب فى القاموس الفلسفى : (إن فكرة الإله مستمد من الشعور ، وذاك المنطلق الطبيعي الذى يتكشف بتقدم العمر ، حتى فى أغلظ البشر قلبا . وشوهدت أكثر آثار الطبيعة ادهاشا — وفرة المحصول والجدب والأمحال والجو المعتدل والعواصف ، المزايا والبلايا — كما كان الإحساس بيد سيد خارق للطبيعة ... إن الملوك القدامى استخدموا فى زمانهم هذه الأفكار ليدعموا سلطانهم [٩٠]. وأفردت كل جماعة إحدى القوى الخارقة لتكون إلها حارسا لها ، وأضفت عليه حالة من التقديس وعبدته وقدمت له القرابين ، على أمل أن يتولى حمايتها من سطو الجماعات الأخرى وآلهتها ، وأوجدت هذه المعتقدات الكهنة ، ولكن التفاسير والتأويلات والطقوس كانت من عمل الكهنة . وبمرور الزمن لعب الكهنة على خوف الناس واستغلوه ليبسطوا سلطانهم وقوتهم . واقترفوا كل ضروب الخداع واللؤم ، حتى إلى حد إعدام (المهرطقين) وقتل جماعات بأسرها ، والقضاء على الأمم تقريبا . وانتهى فولتير إلى القول : « لقد

كرهت الكهنة ، وأنا الآن أبغضهم ، وسأظل أبغضهم إلى يوم الحساب[٩١] » .

أن فولتير وجد كثيراً مما يمكن قبوله فى الديانات غير المسيحية ، وبخاصة فى الكونفوشية (وهي ليست ديانة) ، ولكن لم يسره إلا النزر اليسير فى اللاهوت المسيحى . « أن لدى مائتى مجلد فى هذا الموضوع ، والأدهى من ذلك أنى قرأتها وكأنى أقوم بجولة فى مستشفى للأمراض العقلية[٩٢] . » ولم يضيف إلا القليل لما سبق أن ظهر من نقد للكتاب المقدس . وإنما كانت مهمته أن ينشر هذا النقد على نطاق واسع . ولا يزال أثر هذا علينا واضحا. وفى جرأة وإندفاع أكثر ممن جاءوا بعده ، أكد مرارا سخف طوفان نوح وعبور البحر الأحمر ، وذبح الأبرياء وغير ذلك . ولم يكل ولم يمل قط من شجب قصة « الخطيئة الأولى » ونظريتها . وأقتبس فى سخط وغضب قول سانت أو غسطين « أن المذهب الكاثوليكى يعلمنا أن كل الناس يولدون مذنبين إلى حد أن الأطفال أنفسهم ملعونون بالتأكيد إذا ماتوا دون أن ينفخ فيهم المسيح روحا جديدة أفضل[٩٣] » . (ويقال إن مثل هؤلاء الأطفال يذهبون إلى مكان جميل بجوار الجحيم اسمه الأعراف) !!

أما بالنسبة للسيد المسيح فإن فولتير كان مذبذبا . وأنتقل من الورع الطبيعى فى الطفولة إلى عدم التوقير الذى يغلب فى الشباب ، إلى حد قبول قصة مارى مع الجندى الرومانى ، وفكر فى وقت ما أن يسوع متعصب مخدوع « أحمق » : ولما نضج تعلم كيف يبدى أعجابه بتعاليم يسوع الأخلاقية وقال : « سيكون خلاصنا بفضل ممارسة هذه المبادىء الأخلاقية ، لانتيجة أيماننا بأن المسيح هو الله » . وسخر كثيرا من « التثليث » فى كتابه الملحد والحكيم . ويسأل الملحد « هل تؤمن بأن للمسيح طبيعة واحدة وشخصا واحدا وأرادة واحدة ، أو أن له طبيعتين وشخصيتين وارادتين ، أم أن له إرادة وأحدة وطبيعة واحدة وشخصيتين ، أو إرادتين وشخصيتين وطبيعة واحدة ؟ » ولكن الحكيم يأمره أن ينسى هذه الألغاز ويكون مسيحيا طيبا[٩٥] . ويشير فولتير إلى أن المسيح ، بخلاف القديس بولص والمسيحيين اللاحقين ، ظل مخلصا

لليهودي على الرغم من نقده للفريسيين : « أن هذا الإله الخالد ، بعد أن جعل نفسه يهوديا ، يتمسك بالديانة اليهودية طيلة حياته ويؤدى شعائرها ويتردد على المعبد اليهودى ولا ينطق بشيء يخالف الشريعة اليهودية . وكل التلاميذ يهود وهم يؤدون الشعائر اليهودية . يقينا إنه ليس هـــو الذى أسس الديانة المسيحية . . . أن يسوع المسيح لم يبشر بأيه خصيصة واحدة من خصائص المسيحية(٩٦) » .

أن يسوع فى رأى فولتير ، قبل معتقد كثير من اليهود الأتقياء قبله ، بأن العالم كما عرفوا يسير إلى نهايته ، وسرعان ما تحل محله « مملكة الرب » أى الحكم المباشر لله على الأرض . (والنقد الحديث يقبل وجهة النظر هذه).

وتجاوب فولتير فى سنواته الأخيرة ، أكثر فأكثر ، مع قصة المسيح وبدأ يسميه « أخى » « مولاى(٩٧) » وصور نفسه وكأنما أنتقل فى حلم إلى صحراء مغطاة بأكوام من العظام ، فهنا أشلاء ٣٠٠ ألف من اليهود المذبوحين ، وهناك أربعة تلال من المسيحيين شنقوا بسبب الخـــلافات الميتافيزيقية ، وأكوام من ذهب وفضة تعلوها صولجانات وتيجان الأساقفة والملوك المنحلين ، ثم حمله ملاكه المرشد إلى واد أخضر حيث أقام الحكماء العظام ، وهناك رأى نوما ويومبليوس وفيثاغورس وزردشت وطاليس وسقراط . . . وأخيرا « تقدمت مع دليلى إلى أيكة أعلى من تلك التى أخلد فيها الحكماء القدامى إلى راحة بهيجة ، ورأيت رجلا يتسم بالبساطة وحسن المنظر ، بدا لى أنه فى الخامسة والثلاثين من العمر ، وكانت قدماه ويداه منتفختين داميتين ، وكان مطعونا فى جنبه وكان لحمه ممزقا بضربات من سوط . ولم يكن ثمة وجه للمقارنة بين آلام هذا الحكيم وآلام سقراط».

وسأله فولتير عن سبب موته ، فأجابه يسوع « الكهنة والقضاة » . هل قصد أن يؤسس دينا جديداً ؟ كلا . هل كان مسئولا عن هذه الأكداس من العظام وهذه المقادير الضخمة من الذهب الملكى أو الكهنوتى ؟ كلا . لقد عشت وصحبي فى أشد الفقر « إذن مم تتألف الديانة الحقة ؟ » ألم أقل

لكم من قبل ؟ أحب الله وأحب جيرانك كما تحب نفسك » فقال فولتير « إذا كان الأمر كذلك فأنت مولاى الوحيد ، ورسم لى علامة نزلت على قلبي بردا وسلاما . وأختفى الطيف وتركنى وقد إرتاح ضميرى وشاع فى نفسى السلام والطمأنينة(٩٨) .

ولكن تلك كانت حالة نفسية لاحقة . فإن فولتير فى سنى حربه ضد المسيحية رأى فى تاريخها شقاء بالغا للجنس البشرى . أن صوفية بولس وخرافات الأناجيل المعترف بها أو المشكوك فى صحتها وأساطير الشهداء والمعجزات وبراعة الكهنة فى التخطيط والتدبير ، تضافرت كلها مع السذاجة المتعلقة بأهداب الأمل عند الفقراء لخلق الكنيسة المسيحية ، ثم أن آباء الكنيسة صاغوا العقيدة بفصاحة تكفل ارضاء عقول الطبقة الوسطى . وخبا شيئا فشيئا نور الثقافة الكلاسيكية بأنتشار الأخيلة الصبيانية والاحتيالات والخدع الورعة ، حتى خيم الظلام لعدة قرون على عقل أوربا . وزحف المتأملون من الناس والحالمون منهم ، كما زحف المتقاعدون عن مواجهة تحديات الحياة ومسئولياتها ، إلى الأديار ، وأصاب بعضهم بعضا بعدوى أحلام النساء والشياطين والآلهة . واجتمعت مجالس العلماء والمتفقهين لتنظر أى الحماقات والسخافات تصلح لتكون جزءا من العقيدة المعصومة . وباتت الكنيسة ، بعد أن أسست قوتها وسلطانها على فكرة أشباع رغبة الناس فى الأساطير والخرافات التى تبعث على السلوى والعزاء ، نقول باتت الكنيسة بعد ذلك أقوى من الدولة التى تؤسس سلطانها على القوات النظامية . وأصبحت قوة السيف تعتمد على قوة الكلمة وثل البابوات عروش الملوك ، وأحلوا الأمم من وأجب الولاء للملوك .

ومن رأى فولتير أن الأصلاح البروتستانتى كان مجرد خطوة متعثرة نحو العقل وأمتدح الثورة ضد الرهبان الذين يعيشون على الصدقات فى الأديار ، وضد بائعى صكوك الغفران ، وضد رجال الدين الساعين إلى جمع الثروة ، الذين « استنزفوا فى بعض الحالات دخل أقليم بأسره » وفى شمال أوربا

أختار الناس دينا أرخص وأقل تكلفة[٩٩]. » ولكن أثاره توكيد اللوثريين والكلفنين على القضاء والقدر[١٠٠]. تخيل حاكما أو ملكا يحكم على ثلثي رعاياه بالخلود فى النار ! أو تأمل فى مختلف التأويلات المسيحية للقربان المقدس ، فالكاثوليك يصرحون بأنهم يأكلون الرب لا الخبز ، واللوثريون يلتهمون الرب والخبز كليهما ، والكلفنيون يأكلون الخبز ، لا الرب . وإذا روى لنا أحد شيئا من مثل هذا الأسفاف والجنون بين الهوتنتوت والكفار لقلنا إنه يخدعنا ويلعب على عقولنا[١٠١]. » لقد ولى تقدم العقل لمثل هذه الخلافات ظهره ، وتركها بعيدا إلى الوراء « وإذا قدر للوثروكلفن أن يعود إلى الحياة الدنيا فلن يثيرا ضجة أكثر مما فعل أتباع جون دنز سكوتس وتوماس أكويناس[١٠٢] » .

وإذا أستمر البروتستانت على التبشير بمثل هذا اللاهوت فلسوف تتخلى عنهم الطبقات المتعلمة ، على حين تؤثر الجماهير مذهب رومه المعطر النابض بالحياة . وبالفعل كان فولتير يظن « أن الكلفنية واللوثرية معرضان للخطر فى ألمانيا ، فأن تلك البلاد مملوءة بالأسقفيات العظيمة والأديان المسيطرة والشرائع والمذاهب الكثيرة ، وكلها ملائمة لعمل أية ردة »[١٠٣] .

إذن هل يجدر بالناس المتعقلين أن يتخلوا عن الدين تماما ؟ كلا ، فأن دينا يدعو إلى الله وإلى الفضيلة دون أية تعاليم أو مبادىء أخرى ، لأبد أن يكون ذا نفع حقيقى للجنس البشرى . . . وفى سنيه الأولى كان فولتير يظن « أن أولئك الذين يحتاجون إلى مساعدة الدين ليكونوا طيبين صالحين، هم أحق بالرثاء والأشفاق » وأن أى مجتمع يمكن أن يعيش بالأخلاق الطبيعية غير معتمد على المعتقدات الخارقة[١٠٤] » . ولكن لما اتسعت خبرته بالأهواء البشرية بدأ يسلم بأنه ليس ثمة قانون أخلاقى يمكن أن يقاوم بنجاح القوة البدائية فى الغرائز الفردية ، إلا إذا دعمه أيمان شعبي عام بأن هذا القانون الأخلاقى صادر عن إله بصير ، إله يثيب ويعاقب ، وهو الذى يتولى السهر عليه . وبعد أن إتفق مع لوك عن أنه ليست هناك أفكار فطرية ، عاد فانحاز

إلى رأى ليبنتز فى أن الحس الخلقى فطرى ، وعرفه بأنه شعور بالعدل أودعه الله فينا « أن القوانين تراقب الجرائم المعروفة ولكن الدين يراقب الجرائم الخفية[١٠٥] » . وفى كتاب « الملحد والحكيم » يقول الحكيم :

سأفترض (لاقدر الله) أن كل الانجليز ملحدون ، وأذهب إلى أن هناك بعض مواطنين مسالمين ، هادئين بطبيعتهم أثرياء إلى حد يمكن أن يكونوا معه أمناء يلتزمون مبادىء الشرف . ويراعون قواعد السلوك إلى حد أنهم يسعون جهدهم ليعيشوا معا فى المجتمع . . . . ولكن الملحد الفقير المعوز سيكون غبيا إذا هو لم يقتل أو يسرق ليحصل على المال . فهل تنفصم إذن كل عرى المجتمع وروابطه وتطغى كل الجرائم الخفية على العالم وتنتشر مثل الجراد فوق الأرض ، ولو أنها فى أول الأمر تكون ضئيلة لاتدرك . . . من ذا الذى يكبح جماح الملوك العظام ؟ أن الملك الملحد أشد خطرا من الكاهن المتعصب . . . وتفاقم الالحاد فى أيطاليا فى القرن الخامس عشر . فماذاكانت النتيجة ؟ وكان من الأمور الشائعة أن تسمم إنسانا وكأنك تدعوه إلى العشاء. إذن يكون الإيمان بآله يثيب على صالح الأعمال ويعاقب على الشرور ، ويغتفر مادون ذلك من الأخطاء اليسيرة ، من أنفع الأشياء للإنسان[١٠٦] » .

وإتجه فولتير آخر الأمر إلى أن يرى بعض المعنى فى نظرية الجحيم :

« إلى أولئك الفلاسفة الذين ينكرون الجحيم فى كتاباتهم أسوق الحديث : أيها السادة ، أنا لانقضى أيامنا مع شيشرون وأتيكوس وماركوس وأوريليوس وابيقور . . . ولامع الفاضل المبالغ فى التدقيق والشك ، سبينوزا الذى رد — رغم كدحه تحت وطأة الفقر والعوز — إلى أطفال المتقاعد الكبير دى ويت ، راتبا قدره ٣٠٠ فلورين ، كان قد منحه أياه رجل الدولة العظيم ، الذى قد يذكر أن الهولنديين قد حطموا قلبه . وصفوة القول ، أيها السادة ، أن الناس ليسوا جميعا فلاسفة . أننا مضطرون إلى عقد الأتصالات والقيام بمختلف الأعمال ، والإختلاط فى غمار الحياة بالأوغاد الذين لايفكرون إلا قليلا ، أو أنهم لايفكرون أبدا . وبعدد لايحصى من

الناس الذين لاهم لهم إلا الوحشية والسكر والسلب والنهب ، ويمكنكم إذا أردتم أن تعظوهم بأن نفس الإنسان فانية . أما أنا فسوف أصرخ فى آذانهم بأنهم إذا سلبونى فسيكونون مذنبين لامحالة »[١٠٧] .

ونختتم بأن فى مقدور الشيطان أن يقتبس من فولتير ما يحقق أغراضه أى ما يؤيد الشيطان نفسه . وبعد المناداة بديانه متحررة من الخرافات[١٠٨] ، أمسى المتشكك الكبير اسوأ الخرافات . إنه قد طالب بديانة تقتصر على غرس الفضائل والاخلاق القويمة[١٠٩] . أما الآن فهو يسلم بأن الناس العاديين لا يمكن أن يكونوا بمنأى عن أرتكاب الجرائم إلا عن طريق دين فيه جنة ونار أونعيم وجحيم . وللكنيسة أن تقول إنه تاب وأناب .

وفى سن الثانية والسبعين أعاد فولتير صياغة معتقده تحت العنوان المهذب « الفليسوف الجاهل » (١٧٦٦) إنه فى البداية يعترف بأنه لا يعرف ماهى المادة وما هو الذهن ، ولا يعرف كيف يفكر ولا يعرف كيف يحرك فكره ذراعه[١١٠] . إنه يسأل نفسه سؤالا من الواضح أنه لم يدر بخلده من قبل : أمن الضرورة لى أن أعرف ؟ ولكنه يضيف « أنا لا أستطيع أن أجرد نفس من الرغبة فى التعليم والمعرفة . أن حب الأستطلاع الذى يبعث على الحيرة والارتباك عندى ، لايشبع ولا يقف عند حد مطلقا »[١١١] وهو الآن مقتنع بأن الأرادة غير حرة : « أن المجهول الذى يرى هذا لم يفكر دائماً هكذا . ولكنه فى النهاية مضطر إلى الأستسلام »[١١٢] . هل يوجد هنالك إله ؟ نعم ، وهو العقل وراء « النظام والفن المذهل والقوانين الميكانيكية والهندسية التى تحكم الكون[١١٣] . ولكن هــذا العقل الأسمى معروف لدينا فقط بوجوده لابطبيعته . « أيها الإنسان الفانى البائس . إذا كنت لا ادرك عقلى ، وإذا كنت لا أعرف ماذا ينفخ فى الحياة ، فكيف تكون لى أيةدراية بهذا العقل الذى يجل عن الوصف والذى من الواضح أنه يتحكم فى الكون ؟ . . . ولكنا من صنعه وتدبيره »[١١٤] .

ويميل فولتير إلى الأعتقاد بأنه لم يكن ثمة خلق فى وقت معين ، وأن الدنيا

قد وجدت دائماً ، « تنبعث دائماً من هــذه العلة البدائية الأساسية ، كما ينبعث الضوء عن الشمس » وأن الطبيعة كانت تنبعث فيها الحياة دائما[115] . ولا يزال يؤمن بأن هناك تدبيرا مقصودا فى الكون ، أى « العناية الألهيه » التى توحيه الجميع ، ولكنها تسمح للجزء — بما فى ذلك كل إنسان بمفره — أن يتدبر أمر نفسه[116]. وينتهى إلى القول « إن قلت لى إنى لم أعلمك شيئا ، فتذكر أنى إبتدرتك بأنى جاهل[117] .

وبدأ الفليسوف المتحير يحسد أولئك الذين لم يفكروا قط . ولكنهم آمنوا ، وراودهم الأمل فحسب . ومع ذاك رجع إلى رأى سقراط وهو أن الحياة بدون تفكير غير جديرة بالإنسان . . . وعبر عن تردد بين هذه الآراء فى الحياة فى كتاب « تاريخ برهمى طيب » (١٧٦١) :

(اتفق لى أن التقيت فى رحلاتى ببرهمى عجوز . وكان الرجل ذا عقل راجح وعلم واسع وثراء عريض .. وقال لى الرجل ذات يوم : وددت لو أنى لم أولد قط ، فسألت : ولم هذا ، فقال : لأنى كنت أدرس طيلة تلك السنوات الأربعين ،ووجدت أنى قد ضيعت وقتاً طويلا . وأنى لاأعرف شيئاً على الرغم من أنى أعلم الآخرين .. أنا موجود فى الزمن دون أن أعرف ما هو الزمن ، أنا موضوع ، كما يقال حكماؤنا ، فى التخوم بين عالمين لا نهائيين ، ومع ذلك ليس عندى أية فكرة عن الأبدية أو الخلود . وأنا مكون من مادة فيما أظن . ولكنى لم أستطيع قط أن أقنع نفسى بهذا الذى ينتج التفكير . . . ولا أدرى لماذا أنا موجود ، ومع ذلك فأنا مكب كل يوم على حل اللغز ، ويجب أن أرد جوابا ، ولكنى لا أستطيع أن أقول شيئاً مرضياً فى هذا الموضوع . إنى أتكلم كثيرا ، وعندما انتهى من الكلام أظل متحيراً مرتبكا شاعرا بالخجل مما قلت ..)

وأهمتنى كثيراً الحالة التى رأيت عليها هذا الرجل حقا .

وفى اليوم نفسه كان لى حديث مع سيدة عجوز هى جارته . وسألتها أكانت يوما قد شعرت بعدم السعادة لأنها لم تعرف كيف صنعت نفسها .

ولم تفهم سؤالى . انها لم تفكر ولو لبرهة قصيرة فى حياتها ، وفى هذه الموضوعات التى عذب البرهمى الطيب نفسه بالتفكير فيها . وآمنت من أعماق قلبها بتحول إلهها فشنو Vishnu وكانت ترى أنها أسعد النساء شريطة أن يتاح لها الحصول على شىء من الماء المقدس من نهر الكنج لتغتسل به . وأثارتنى سعادة هذه المخلوقة المسكينة ، فعدت إلى فيلسوفى وابتدرته بقولى : ألا تخجل من بؤسك وتعاستك . على حين أنه على بعد ٥٠ ياردة منك يوجد مخلوق آلى (أوتوماتيكى) لا يفكر فى شىء ويعيش هانئا راضيا فرد على بقوله « أنت على حق . لقد قلت فى نفسى ألف مرة إنى سأكون سعيداً لو أنى كنت جاهلا مثل جيرانى العجائز . ومع ذلك فتلك سعادة لا أرغب فيها . وكان أثر رد البرهمى فى نفسى أعظم من أى شىء مضى . وخلصت إلى أننا على الرغم من أننا قد نضفى على السعادة قيمة عظيمة ، فإننا لانزال نقدر للعقل قيمة أعظم .

ولكن بعد تأمل ناضج . . لاأزال أرى أن هناك قدراً كبيراً من الجنون فى إيثار العقل على السعادة (١١٨)

٨ — فولتير متعصب

وفى حالة نفسية مماثلة لهذه كان بسكال قد اختار أن يخضع تفكيره الذى غلب عليه المنطق للكنيسة الكاثوليكية باعتبارها تنظيما كان قد وجده بعد طول التجربة مزيجاً من التعليم والطقوس تساعد على الفضيلة والأخلاق القويمة وتخفف من لوعة التساؤل والحزن . ولم يذهب فولتير فى سن السبعينات بعيداً إلى هذا الحد ، ولكنه سار مضطرباً مشوش الذهن فى هذا الإتجاه .

وبدأ بأن وطن النفس على قبول فكرة أن الدين ، أى دين ، أمر مرغوب فيه بصفة عامة . وحين سأله بوزول (٢٩ ديسمبر ١٧٦٤) ألا ترى أن تكون هناك عبادة عامة ؟ أجاب فولتير « نعم ، من كل قلبى . فلنجتمع أربع

مرات فى كل عام فى معبد كبير، تصدح فيه الموسيقى ، لنقدم الشكر لله على كل نعمائه . فهناك شمس واحدة ، وهناك إله واحد . ولتكن لنا ديانة واحدة • ومن ثم يكون بنو البشر إخوة)[١١٩] . أن الشمس — كما يقولون مهدت له نصف الطريق إلى الله . وفى مايو ١٧٧٤ وهو فى سن الثمانين ، صحا من نومه قبل الفجر ، وصعد مع أحد أصدقائه ليشهد مشرق الشمس من تل قريب • وربما كان يقرأ روسو . وبلغ القمة وقد نال منه التعب ، وأربكه جلال الشمس المنتصرة وعظمتها ، فركع وصاح : يا الله العلى العظيم ، أنى أؤمن ! لكن ثابت نفس فولتير إليه فقال وهو ينهض على قدميه أما بالنسبة للسيد الإبن والسيدة أمه ، فتلك مسألة أخرى[١٢٠].

وذهب شيئاً فشيئاً إلى أبعد من ذلك فارتضي وجود رجال دين يعلمون الناس الفضيلة ويقدمون الصلوات لله[١٢١]. واعترف بأن الأساقفة فى فرنسا وانجلترا أسهموا فى إقرار النظام الإجتماعى ، ولكن الكاردينالات كانوا باهظى النفقة ويجب الاستغناء عنهم • وكان ينظر بعين الإجلال والإكبار إلى راعى الأبرشية البسيط الذى حفظ سجل القرية وساعد الفقراء وأصلح بين الأسرات المتنازعة ، فهؤلاء الكهنة رعاة الأبرشيات يجب أن يكون احترامهم أكبر وأن تزاد مخصصاتهم ، وألا يستغلهم رؤساء الكنيسة[١٢٢]. وفى ساعات التجلى كان التائب العجوز يريد زيادة الاجتماعات الدينية لتكون مرة فى كل شهر ، بل حتى فى كل أسبوع[١٢٣]. ويجب أن يكون هناك صلوات وتكبير لله ، وعبادات ودروس فى الأخلاق ، ولكن لاقربان ولا ذبائح ولا توسلات ، ولتكن العظات قصيرة • وإذا كان لابد من صور وتماثيل دينية فلتكن لتخليد ذكرى أبطال الإنسانية ، لاذكرى القديسين المشكوك فى أمرهم ، مثل هنرى الرابع (لاخليلاته) • وينبغى ألا يكون هناك تعاليم خارقة للطبيعة ، اللهم إلا وجود إله عادل . ويجدر أن تخضع هيئة الكنيسة للدولة • وأن تتولى الحكومة تدريب رجال الدين ودفع أجورهم .

ويمكن أن تبقى الأديار والرهبنات على أن تكون ملاجىء للعجزة والمرضى. ومثل كثير من المتشككين نظر فولتير بعين الأكبار والإجلال إلى الراهبات اللائى خرجن من أديارهن لمساعدة المرضى والفقراء منذ رأى « إخوات البر والإحسان » فى مستشفيات باريس. وكان قد كتب فى رسالة العادات والأعراف: ليس فى العالم كله ما يضارع التضحية بالجمال والشباب وغالباً بكرم المحتد وعراقة الأصل، تلك التضحية التى يقدمها الجنس اللطيف عن طيب خاطر للتخفيف من ويلات الإنسانية فى المستشفيات. إن الأمم التى انفصلت عن العقيدة الكاثوليكية قلدت بشكل منقوص، أعمال البر والاحسان الجليلة هذه.[١٢٤]

وكما يعرف العالم بأسره شيد فولتير بالقرب من قصره فى فرنى كنيسة صغيرة نقش على مدخلها باعتزاز عبارة « يارب إذكر عبدك فولتير » وادعى أنها الكنيسة الوحيدة المخصصة لله وحده على هـذه الأرض. أما الكنائس الآخرى فهى مخصصة للقديسين[١٢٥].

وطلب إلى رومه أن تزوده ببعض المخلفات المقدسة ليضعها فى كنيسته، فأرسل البابا ثوبا من وبر الجمل للقديس فرانسيس أوف أسيسى، ووضع فولتير على المذبح تمثالا بالحجم الطبيعى من المعدن المذهب للمسيح لا وهو مصلوب بل باعتباره حكيما. وهناك إبتداء من ١٧٦٠ فصاعدا، حضر فولتير القداس فى كل يوم أحد، وكان يقوم هو نفسه بعملية البخور باعتباره سيد القرية. وفى عيد الفصح ١٧٦٨ تناول العشاء الربانى[١٢٦] وكان يرسل خدمه إلى الكنيسة بانتظام ودفع أجور تعليم أبنائهم قواعد الديانة[١٢٧].

وربما قصد بجزء كبير من هذه التقوى والورع أن يكون قدوة حسنة لأهل قريته، ويشجعهم على إيمان قد يحد من جرائمهم ويصون ممتلكاته. وكان واثقا أن الحاشية الملكية فى فرساى سوف يترامى إليها أنباء سلوكه المثالى، وربما راوده الأمل فى أن هذا قد ييسر مهمته فى شن الحملات من أجل كالاس وآل سيرفن ودى لأبار، ويشفع فى عودته إلى باريس. والحق أن

الملك والملكة قد سرهما ماسمعا من أنباء إصلاحه . ووافق الكاهن دى لاباترى على أن يتناول فولتير الأسرار المقدسة ، ولكنه عندما رأى هزال المبلغ أبدى ملاحظة فحواها أن فولتير نسى أن يدفن نفسه ، فأجاب فولتير بانحناء واحترام « يعدك ياسيدى ».[١٢٨] وفى ٣١ مارس سنة ١٧٦٩ إستدعى موثقا ووقع أمام عدة شهود وثيقة تؤكد رغبته فى الموت على العقيدة الكاثوليكية[١٢٩]. وسخر منه الأخوة فى باريس ، وتقبل هو سخريتهم بصدر رحب .

وبعد ١٧٦٨ اعتاد كما هو الحال فى الأديار ، أن تقرأ عليه بعض الكتب التعبدية أثناء تناول الطعام . وكان لهـذا الغرض يؤثر « عظات ماسيون » لأنه إستطاع أن يقدر قيمة الأدب حتى ولو بقلم كاهن . وكان قد اشترك فى الحملة ضد اليسوعيين ، ولكن فى ١٧٧٠ انضم إلى رابطة علمانية للاخوة الكبوشيين ، وحصل من رئيس هذه الطائفة على لقب « الأب الدنيوى لطائفة الكبوشية فى جكس » ، وهى القرية التى كان فيها سيدا اقطاعيا . وكان فخورا جداً بهذا التشريف ، وكتب عنه عدة رسائل وقع على بعضها باسم « الأخ فولتير الكبوشى » . وحياه فردريك قديسا جديدا فى الكنيسة ، ولكنه أبلغه أن السلطات الكنسية فى رومه كانت قد أحرقت فى نفس العام بعض أعمال الكبوشيين الحقيرة[١٣٠]. وليس من اليسير أن نتبين أن تودده إلى الكنيسة كان مخلصا أو أنه كان ترضية لقصر فرساى ، أو أنه كان بدافع الخوف من الحيلولة دون دفن رفاته فى الأرض المخصصة لهـذا الغرض ، وهى تشمل كل مقابر فرنسا . وربما لعبت هذه العوامل الثلاثة دورا فى الكوميديا المقدسة .

وفى تلك الأعوام الأخيرة ١٧٧٠ – ١٧٧٨ وقف قلمه على تفنيد الالحاد لامهاجمة المسيحية . وأضاف إلى مقال « الله » فى القاموس الفلسفى فقرتين دحض فيهما « نظام الطبيعة » لدى هولباخ . وفى ١٧٧٢ دبج مقالا رائعا تحت عنوان « يجب أن نؤيد » وفيه دافع عن « الله والتسامح » . واعترف لمدام تكر والدوقة دى شوازيل ، وللامير البروسى فردريك وليم ، بخوفه

على حركة التسامح الديني من أن يهزمها تأييد الالحاد والدفاع عنه . وأسف لأن نقده لدى هولباخ قد يهدد تضامن « الأخوة » ولكنه أصر فى عناد : « لاشك عندى فى أن المؤلف وثلاثة من مؤيدى هذا الكتاب سيكونون من الد أعدائى لأنهم تحدثوا بأفكارى . وقد أعلنت لهم أنى سأتكلم طالما كان فى عرق ينبض أو طالما ترددت أنفاسى دون أن أخشى المتعصبين للالحاد ولا المتعصبين للخرافة[١٣١] . ورد أنصار دى هولباخ على هذا بقولهم إن السيد الثرى يشتغل بالسياسة مع فرساى ويستخدم الله ليحافظ على النظام بين خدمه وفلاحيه فى فرنى .

وفى السنوات العشر الأخيرة من حياته ، نظر إليه الرجال الذى هتف لهم يوما ، وحفزهم وشجعهم على الانضمام إلى الحملة ضد « الرجس » باعتبارهم أخوة ، نظروا إليه وكأنه قائد مضيع . أن ديدرو ما أحبه قط ، وما ألف تبادل الرسائل معه ، وكره منه زعمه الواضح بأن دالمبير هو رأس الموسوعة المفكر وروحها المدبر . لقد استحسن دفاع فولتير عن آل كالوس . ولكن افلتت منه عبارة تنم على الحقد يقول فيها « أن هذا الرجل لا يعدو أن يكون الثانى فى كل الأحوال[١٣٢] » . أن فولتير لم يشارك ديدرو سياسته الثورية ولا حبه لمسرحية البرجوازية العاطفية ، أن البرجوازية حين تصبح ارستقراطية لا تسيغ قناعة البرجوازية . ولم يقم ديدرو ولادى هولباخ بحجج الاخلاص والولاء إلى فرنى . وعلق جيم فى صرامة غير معهودة على نقد فولتير لهوبز وسبينوزا بقوله : « أن الفيلسوف الجاهل لمس بصعوبة سطح هذه الموضوعات ولم يتعمق فى فهمها »[١٣٣] . إن الملحدين فى باريس ، وقد زاد عددهم واعتزازهم بأنفسهم ، ولوا الآن ظهورهم لفولتير وانصرفوا عنه . وفى أوائل ١٧٦٥ ، وحتى وسط المعركة ضد « الرجس » نبذه أحدهم فى إحتقار قائلا « إنه متعصب إنه ربوبى[١٣٤] » .

وبدأ الشيخ الجليل الواهن حوالى ١٧٧٠ ، بعد أن تخلى عنه الجانبان وقاوموه ، بدأ يفقد ثقته فى أمكانات الفوز ، وأطلق على نفسه « المدمر

الكبير » الذى لم يبن شيئا .(١٣٥) وخشى من أن دينه الجديد — وهو دين « الله والتسامح » لن يتأتى إلا إذا قبل الحكام نصيحة القديس بطرس « أعملوا من أجل السلام الدائم » أى أنه لن يأتى أبدا . أنه أرتاب طويلا فى وهن الفلسفة وانعدام الفتنة والجاذبية العقل . إن أى فليسوف لم يؤثر فى عادات الناس حتى فى الشارع الذى يقطنه ، وأسلم الجماهير للخرافة أو الأساطير . وراوده الأمل فى أن يحظى بنحو أربعين حكيما فى فرنسا وبالفئات المتعلمة فى الطبقة الوسطى ، ولكن هذا الأمل نفسه بدأ يزوى ويذبل حين آذنت شمس حياته بمغيب . وكل الحلم الذى كان يراوده وهو يستعد فى سن الرابعة والثمانين ليرى باريس قبل أن يموت ، هو حلم « تنوير الشباب شيئا فشيئا » . فربما يعود إليه فى غمرة الترحيب الشديد به هناك ، إيمانه بالإنسان وأمله فيه .

وهل كان فولتير فيلسوفا ؟ نعم . أنه كان كذلك على الرغم من أنه لم يصطنع مذهبا . وأنه تردد وتذبذب فى كل شىء . وغالبا ما بقى فوق سطح الأشياء ولم يتعمق فيها . ولم يكن فيلسوفا إذا كانت هذه الكلمة تعنى صانع مذهب قائم على فكر موحد متماسك عن العالم والإنسان . إنه انصرف عن المذاهب باعتبارها هجمات وقحة على « المطلق غير المحدود » ولكنه كان فيلسوفا إذا كان المقصود بالفلسفة انشغال الذهن بشكل جدى بالمشاكل الأساسية للطبيعة والاخلاق والحكومة والحياة والقضاء والقدر . ولم يعتبر فولتير عميقا . وربما كان السبب فى هذا أنه كان غير متأكد ، وكان واضحا وقل أن كانت أفكاره أصيلة . ولكن كل الأفكار الأصيلة تقريبا فى الفلسفة سخيفة . وانعدام الأصالة علامة الحكمة . يقينا كان الشكل الذى صاغ فيه أفكاره أصيلا . وفولتير بلا نزاع ألمع كاتب ظهر ، وهــل كان الرجل الثانى . لا الرائد الأول . فى كل مجال كما اتهمه ديدرو ؟ كان الثانى فى الفلسفة بعد ديدرو . نعم . وفى المسرحية بعد كورنى وراسين ولكنه كان الأول والأفضل فى زمانه فى فهمه وكتابته التاريخ وفى رقة شعره ، وفى

سحرنثره وظرفه ، وفى مدى تفكيره وتأثيره . ورفرفت روحه مثل اللهب فوق القارة وفوق القرن . كما أنها تثير وتهز مليون نفس فى كل جيل .

وربما أسرف فى كراهيته ، ولكن علينا أن نتذكر الاستفزاز والإثارة ، ونتصور أنفسنا عائدين إلى الوراء فى عصر كان الناس يحرقون فيه على الخازوق ، أو تقطع أيديهم وأرجلهم من خلاف بسبب الارتداد عن الديانة التقليدية . وقد نرى المسيحية الآن أفضل مما كانت عليه أو مما رآها هو آنذاك، لأنه ناضل وأصاب بعض النجاح للتخفيف من تعاليمها وحدتها. ويمكن أن نحس بقوة وروعة العهد القديم وجمال العهد الجديد وسموه ، لأننا أحرار فى أن نفكر فيهما باعتبارهما من عمل وإيحاء رجال غير معصومين من الخطأ . ويمكن أن نكون شاكرين ومقدرين لاخلاق المسيح لأنه لم يعد يهددنا بالجحيم ، أو يصب اللعنة على الناس والمدن التى لاتستمع إليه(١٣٧) .

ويمكن أن نحس نبل القديس فرانسيس الأسيسى لأنه لم يعد يطالب منا أن نصدق أن القديس فرانسيس أكسافيير كان يسمع فى عدة لغات على حين كان يتحدث بلغة واحدة ، ويمكن أن نحس بشعر الطقوس الدينية وبالمسرحية فى هذه الطقوس ، حيث تركنا الأنتصار العابر للتسامح أحرارا فى أن نتعبد أو نمتنع عن العبادة . ويمكن أن نتقبل مائة أسطورة باعتبارها رموز عميقة أو مجازات منيرة موضحة ، لأننا لم نعد يطالب منا أن نتقبل حقيقتها الحرفية . وتعلمنا أن نتعاطف مع ما كنا يوما نحبه . وكان علينا أن نتخلى عنه ، عندما نستعيد أجمل الذكريات لما كنا نحب فى شبابنا. ولمن ، أكثر من أى رجل واحد آخر ، ندين بفضل هذا التحرر العزيز علينا والذى يعتبر فاتحة عصر جديد ؟ أننا ندين بهذا الفضل لفولتير .